ابراهيم الكوني

التغبر

تتنوع موضوعات النصوص الواردة في هذا الكتاب تنوع الوجود والحياة، وما يقابل البشر من أقدار وما ينتابهم من أهواء وما يحكم وجودهم من شروط هي ذاتها شروط الوجود الانساني وتحديداته الصلبة ، ناهيك عن العلاقات الاجتماعية التي لا تقلُّ صرامة عن قوانين الطبيعة التي ما تزال لها السيادة العليا على الكون الصحراوي الذي يحيل القاصّ تفصيلاته ووقائعه وعناصره الى مادة للتأمل حول الاسئلة الأبدية عن الانسان والوجود والموت واللّه ومغامرة الانسان في العالم .

ولعلَّ من فضائل الكاتب الأساسية أنه لا يتجنب النظر في الأشياء كما هي على حقيقتها ، وإنما لديه ما يكفي من الشجاعة للتفرّس عميقاً في نقص الانسان وحدوده الذي رغم تاريخه المديد ماتزال تستبد به نزوات وعواطف البهيمية الأولى : فما زال الانسان يمارس القتل ويبرره طمعاً في السلطة والنفوذ والذهب «وهل يصير الانسان سلطاناً دون إن يضطر إلى قتل أخيه» كما يقول الإمام في قصة (السلطان) ؛ ومازالت المرأة تستدرج الرجل خلف سراب المتعة دافعة اياّه نحو متاهة البحث عن الثروة وبالتالي الهلاك، كما لو ان امتلاك الحبيبة يمرُّ بالضرورة بامتلاك الذهب (قصة السيل) ؛ ومازالت السجون تعجُّ بالمنفيين والغرباء كما لو أنها اساس لضبط العلاقات في المدينة (قصة القفص) .

لكن الكوني يقدِّم لنا وجهاً آخر للانسان، بل قلْ وجوهاً، ففي قصة (نذر البتول) تكتشف «تازيديرت» كيف تكمن الحرية في الموت؛ وفي (طائر النحس الذهبي) تفجِّر فينا «لوعة الأم على الولد» احساساً بالفقد والفجيعة ففي كل منا تكمن جرثومة الموت تتحيَّن الفرصة؛ وفي (النبوءة) يحكم قدر اغريقي صارم مصائر الشخصيات ويقودها نحو المحتوم .

أمّا (نداء الترفاس) فهو نشيد شاعري، جميل بقدر ما هو حزين، عن مسيرة الحياة – حياة البشر كما حياة كائنات الطبيعة الأخرى – بين الولادة والموت، الوجود والعدم .

القفص
S.P180
111507
عالم المعرفة

تاسيلي للنشر والاعلام
دار التنوير للطباعة والنشر

ابراهيم الكوني

القفص

حصريا على منتدى سور الأزبكية
أعمال إبراهيم الكوني
- القطب -

* إبراهيم الكوني: القفص.
* الطبعة الثالثة: ١٩٩٢.
* جميع الحقوق محفوظة.
* الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر تاسيلي للنشر والاعلام

133 Makarios Avenue
Classic House Building-Office No.4
Tel: (357-5) 387463
Fax: (357-5) 387464
Limassol - Cyprus

* المركز الرئيسي:
الصنوبرة ـ أول نزلة اللبان ـ بناية عساف ـ
الطابق السابع ـ تلفون ٨٠٦٣٥٩
ص. ب ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

حصريا على منتدى سور الأزبكية
أعمال إبراهيم الكوني
ـ القطب ـ

مولد الترفاس(*)

«سبقت إلى الجزئيات: فبي تجزأت لا بالحدّ. وسبقت إلى الحدّ: فيّ تحدد، لا بالمكان. وسبقت إلى المكان: فبي تمكن، لا بالمسافة. وسبقت إلى المسافة: فبي سافت، لا بالفضاء. وسبقت إلى الفضاء: فبي تفضّأ، لا بالهواء. وسبقت إلى الهواء: فبي كان هواء، لا بالهباء. وسبقت إلى الهباء: فبي كان هباء، لا بالإبداء. وسبقت إلى الإبداء: فبي كان إبداء، لا بالمدى»

م. ع. النفّري

«موقف الإستواء»

(*) الترفاس: نوع من الكمأ ينمو بالحمادة الحمراء ـ الصحراء الليبية.

١ ـ الكنز

هذه تعويذة الرعاة. . . هذا طلسم قبائل الصحراء في البحث الموسمي عن الثمرة السحرية.

ـ يا لرقا(*). . وين الترفاس؟

هذا هو السؤال الأبدي.

ـ نبّته وكلوه الناس!

وهذا هو الجواب العدمي.

دائماً يأكله أناس مجهولون لم يرهم أحد. وربما لا وجود لهم. دائماً يختطفونه قدامك، من بين يديك. ربما هم الجن. يسبقون ليأخذوا كنزهم بعيداً عن متناول الإنس. كما تعودوا أن يفعلوا مع الذهب. أليست الكنوز كلها ملكاً موقوفاً على أولئك الجند المجهولين؟

ولهذا فإن الجواب الخائب، العدمي، دائماً فيه لوعة، وربما هزيمة.

«نبّته وكلوه الناس».

(*) لرقا: نبتة صحراوية يعتقد أهل الصحراء أن زهورها تلعب دوراً في تكوين الترفاس.

حصرياً على منتدى سور الأزبكية
أعمال إبراهيم الكوني
ـ القطب ـ

هكذا يتطوّع الرعاة ليجيبوا نيابة عن الـ «لرقا» الخرساء!

ولمّا لم تعرف الصحراء منذ أن أصبحت صحراء، ثمرة ألذ طعماً من الترفاس فقد أصبح البحث عنها تقليداً قدسه الأولون وأورثوه للأولاد والأحفاد.

ولكن موسم الترفاس سرّ. ونموّ الثمرة حيّر أهل الصحراء منذ الأزل.

قال فريق: ظهور الثمار الخفيّة مرهون بأمطار خريفية غزيرة تعقبها أمطار شتوية تناسبها في السخاء.

ويؤكد فريق آخر قائلاً: إن السرّ الأول يكمن في أمطار الصيف تدعمها أمطار الخريف والشتاء.

ويقوم فريق ثالث ويطعن في رأي كلا الفريقين مستنداً إلى تلك المواسم التي كثر فيها محصول الثمرة السحرية في سنوات لم تشهد فيها الصحراء قطرة مطر واحدة، لا في الخريف ولا في الصيف ولا في أيّ فصل من الفصول الأربعة. ويعتقد هذا الفريق أن للترفاس علاقة مباشرة بالسماء. ويروق لهؤلاء أن يحيلوا أيّ سؤال يعجزون عن الإجابة عنه، سواء كان يخص الترفاس أو أي سرّ آخر من أسرار الصحراء الكثيرة إلى العرّافين. ويبررون ذلك قائلين إن الترفاس مثل أيّ كنز في الصحراء سرّ. والأسرار تدخل في اختصاص العرافين. الله حرّم علينا أن نأكل أرزاق بعضنا بالباطل فكيف ننزع خبز العرافين من بين أيديهم؟

٢ ـ اشـارة

الترفاس كنز، واكتشاف الكنز مشروط بوجود الطلسم.. مفتاح السرّ، فأين طلسمك أيتها الثمرة السحرية؟

أهو بين يدي العرافين حقاً كما يؤكد الأهالي؟

دعونا نطرق باب العرافين ونقرأ في عيونهم المجهولة، العمياء دائماً.

عيون العرافين في الصحراء دائماً فارغة وعمياء. ويقول العارفون الرحل إن هذه عاهة طبيعية لمن رزقه الله بالبصيرة.

البصر والبصيرة لا يجتمعان، وهي حكمة معروفة في بلاد العرافين الأصلية: «كانو» البعيدة!

فماذا تقول عيون السحرة الفارغة عن أصل الترفاس؟

قالت العرّافة الزنجية الشهيرة وهي تنظر في الفراغ الأبدي بعينيها الفارغتين، وتشير إلى الأفق الممتد بيدها النحيلة الموسومة بعروق بارزة:

ـ انظر! خلف الأفق يلوح ضوء غامض.. بهرة خفيّة. لا تنظر إلى الشمال فتلك بهرة من نوع آخر. تلك زرقة يلوح بها البحر البعيد المستلقي في اليمّ العميق وراء جبل نفوسة. انظروا إلى اليسار، نحو الغرب. هناك يلوح الضوء الخفي الذي أريد أن أحدثك عنه. هل رأيته الآن؟ إذن تمهّل، فعما قريب سيجتمع الغمام. غمام كثيف محمل بمطر غزير. هذا ماء النهر الذي رفعه الله من الأرض ودسّه إلى جواره في السماء عندما أراد أن يعاقب هذه القبائل الشقية في الزمان القديم فتحوّلت الدنيا إلى صحراء كبرى. نهرنا في السماء كما ترى. ويرقّ قلب الرحيم على العباد فيريه بين الحين والآخر، ويتلطف أحياناً أخرى، ويبلل ريق الصحراء العطشى بقطرات منه.

انظر الآن. السحب تتحرك، تسعى، تزحف نحو الشرق. هل أحسست بالنسمة المغسولة بالنهر السماوي؟ الريح المغسولة بماء النهر فقط تستطيع أن تغسل الرئة وتشفي المصابين بالربو. في الهواء رائحة. آه من هذه الرائحة الربانيّة! لا تقل إنها رائحة المطر في الفضاء المصهور بالغبار والصهد. هذه رائحة أخرى. رائحة عطش.. تستجدي الإشارة، تتوسل أن

تنزل وتستقر لتبقى في الأرض.. لأنها تريد أن تهجر العدم، تريد أن تكون.

إنها تنتظر الإشارة.

ها هي الإشارة!

هل رأيت الإشارة؟

السوط المفتول من ألسنة الشرر يفلق الأفق المتجهم، المزدحم بالسحاب المطير. السوط الرباني لبّى توسلات الشذى السحري.

٣ ـ النداء

لا يولد السرّ إلا بالنداء. اسمع الدمدمة.. همس المجهول.. تمتمة العدم. التمتمة تسبق الدمدمة المسموعة. الصحراء تصغي، تهمد، تموت انتظاراً. ورائحة الشذى المجهول، المشطور بضربة الضوء الإلهي يتضوّر توقاً إلى النداء. هل سمعته الآن؟ إنه واضح د.. د.. د.. م.. د.. د.. د.. م! دم.. دم.. دم. انهيار صرح في الغيب. وعراك الجنّ في الفراغ. وشوق الملهوف لتلبية النداء الوجودي. يركب جناح الريح ليرتمي في أحضان الملهوف. يلتقي النقيض بالنقيض، ويتحدان، يتعانقان، يتداخلان، يلتحمان.

يخيم على الصحراء صمت القبور. يرتل الجنّ آيات من كتاب الميلاد. تخشع الملائكة وترقص الحوريات في الجنّات.

يستمر الالتحام حتى يذوب النقيض في النقيض ويستحيل الضوء والشذى كلاً واحداً.

٤ ـ التكوين

تتمدد البذرة في العدم، تلتقط أنفاساً من باطن الأرض. في تراب الصحراء أنفاس كثيرة. الباطن مشبع بشذى الزهور الأسطورية. بكل الزهور التي تلاحقت في الأودية والسهول في الربيع عبر آلاف وآلاف السنين، تمتصها بذرة الترفاس وتحتضنها في صدرها البكر الذي بدأ للتو يتكوّر وينمو ويتمدد، ويبحث لنفسه عن مكان بعيد في باطن الأرض المبللة بدموع السماوات، المعطرة بزهور الآلاف من السنين. الأرض الآن ترتجف. الأرض حبلى بالثمرة السحرية، الثمرة الوليدة من تزاوج إشارات السماء ونداءاتها ببكارة الأرض العطشى للحب والماء.

إيماءات السماء تثمر في رحم الأرض الرحيمة. تثمر سحراً خفيّاً مدوّراً كنهد صبية عذراء. تتعدد ألوانه وحجومه ومذاقه. الكبير والصغير والمتوسط. الأبيض والأسود والأحمر. والمذاق؟ والرائحة؟ كيف يمكن وصف مذاق ثمرة لقاحها في السماء ومأواها من الأرض؟ كيف يمكن وصف مذاق ثمرة تشبعت بأزاهير ألف عشبة أسطورية وألف زهرة صحراوية؟ كيف يمكن وصف شذى نبتة صنعتها البروق والرعود والرياح والشوق، شوق السماوات العُلى إلى لقاء الأرض المعذبة بنيران العطش والجفاف والهجر الطويل؟

كيف يمكن أن تستقيم العبارة الصمّاء في التعبير عن الأعجوبة؟

وبرغم هذا المستحيل يتجاسر الإنسان الجهول ويفتح فمه مدعياً المعرفة والعلم. فيا لها من بجاحة وجهالة إتصف بها هذا المخلوق دون سواه!

٥ ـ الحجاب

يظلّ الكنز مخفياً في الجوف. ينمو، يتمدد، يستدير. يركل بجسمه المتوتر. يخنقه القبر. يكتم أنفاسه التراب القاسي. يقاوم. الحياة أقوى من

الموت حتى في جوف القبر. يدفع الحصار من حوله. يدوس الحبيبات الصغيرة العنيدة الحمراء. تهرسه الأرض. لا يستغيث. تتلاحق أنفاسه القوية، يملأ جسمه المتنامي بالهواء ويدفع الطبقات السفلى. يستدير. يتكتل. يتململ. يفلق الحجاب. يبحث عن متنفس. عن طريق للخروج، للرؤية. لا يجد القلب راحة حتى ينعم بمقام الرؤية. تكبر الكتلة. تتكوّر. تندفع في كل الاتجاهات. ولكن رأسها يظل مندفعاً إلى الأعلى. نحو المجهول. نحو الأصل. كل فصل يرجع إلى الأصل كما يحنّ الولد إلى الوالد. الجزء إلى كلّه. لا بد من تمزيق اللثام. لا بد أن تقرّ العين بمشاهدة ضوء النهار.

٦ ـ الكشف

تشققت الأرض في الشعبة المفضية للسهل. السهل يكتظ بـ «لرقا» الخضراء. برزت التشققات وارتفع النتوء الغامض. في النهاية انشقت الأرض عن الكنز الدفين وأطل رأس الوليد السحري العنيد باحثاً عن رب السماوات والأرض. في الصباح دائماً تبدو قمم جبال الحساونة(*) مغلفة بغلالة زرقاء، غامضة أيضاً.

رأس الوليد السحري اتجه صوب تلك القمم الإلهية الجليلة.

من الشمال هبت نسمة الربيع التي تمسح هموم القيظ في الصحراء. هل جربت أن تعطي خدّك وتفتح صدرك للنسمات الرطبة من الحمادة الحمراء؟

آه! لا يعرف مذاق هذه النسمة إلا من صهره الصهد وذاق طعم القبلي.

(*) جبل الحساونة: (نسبة إلى قبيلة بهذا الاسم) سلسلة جبلية تمتد جنوب ليبيا عند نهاية الحمادة الحمراء.

المعجزة الآن اكتملت.

فهبّي أيتها النسمات الشمالية الرحيمة، وارقصي يا حوريات النعيم، وابتسمي يا سماء وقبّلي جبين الصحراء المقهورة. لاطفي الأرض وحنّى على تراب الحمادة المسكين. تعانق البرق والرعد في مكان ما بعيد، وتبادلا التهاني في المجهول، فقد تكوّن الجنين من العدم، وطلع في نهار ربيعي، وتوجه برأسه نحو قمم جبال الحساونة الزرقاء كي يتواصل في الأصل ويلتحق بالكل.

ولكن هل وجب الغناء والفرح عندما تكتمل الحياة وتتكامل الدورة؟ نحن العرّافون ننصح باللطم والعويل.

٧ ـ الفناء

مع هذا المصير لا تنفع تعاويذ السحرة.

طلع البدر واستدارت الترفاسة السحرية في العراء المكشوف.

عارية. حاسرة الرأس. طلع النهار فاكتوت بنار الشمس. شربت الرطوبة وامتصت منها الحياة. استمرت تعلن عن نفسها وتنتظر القطاف. أين الرعاة؟ أين الغزلان؟ أين الفئران؟ أين الطيور البرية؟

الصحراء مهجورة. الصحراء مهجورة منذ زمان.

الرعاة هاجروا إلى المدن وتطاولوا في البنيان.

الغزلان أبادها المغامرون ببنادق الخرطوش وسيارات اللاندروفر.

الفئران ابتلعتها الأفاعي. الطيور أقلعت إلى الشمال في هجرتها الجماعية.

هبّ القبلي.

أقبل الصيف.

تفتت الرأس، ثم الجسد. اندثرت الترفاسة، وتناقلت ريح القبلي الهباء. تراكمت طبقات السكون وتكاثفت فوق الخلاء المدهش، المهجور. تحاور الجنّ في ظلمات جبل الحساونة. وفي الليل ضجوا بضحة مجلجلة تردد صداها في العراء الأبدي. قالت العرافة العمياء:

ـ همهم الجن العليم بكل شيء خفي: الكنز يعود إلى مولاه كما يرجع كل شيء إلى أصله، الابن إلى الأب، والعبد إلى الرب.

(١٩٨٩)

نـــذر الـــبتـــول

«ليبيا تصحّرت. الماء اختلس الندى
فناحت الحوريات بشعور مهدّلة يبكين جفاف الينابيع والبحيرات»

اوفيديوس
«التحولات»
المجلد الثاني

«الماء يتمدد ويتكاثف مدفوعاً بالنّار ليكوّن الأرض. يندفع ويخرقها فيصنع الهواء. على هذه الشاكلة فإن الأرض مرفوعة بالهواء، والهواء مرفوع بدورة النار. كل الكائنات الحيّة خلقتها الأرض بالحرارة التي ينفثها الطمي بنفس الأسلوب الذي يغذي به الحليب الجسم. بهذا الأسلوب أيضاً خلقت الأرض النّاس».

ارخيلايوس
أوردها ديوغين لاورتسي في
«حياة وتعاليم وحكم مشاهير الفلاسفة»

- ١ -

ـ غر.. غر.. غر.. رق.. رق.. رق..

أنصتت مرة أخرى. انحنت كي تتبيّن الصوت الخفي ثم عادت تحاول تقليد لغة الماء:

ـ لق.. لق.. لق.. لق.. لق.. لق!

سعدت بالاكتشاف. راقت لها النغمة الأخيرة فرددتها طويلاً وهي تنحني فوق النهر المتدفق في قنوات صغيرة تتسلل بين الصخور، تتلّوى حول الشجيرات البريّة الشاحبة عبر الوادي الكبير.

هبت نسمة شمالية باردة، مشبعة بالماء.

الشتاء.

السماء عارية في الحمادة. وبرغم الصفاء فإن الشمس لم تجرؤ على العجرفة والاستبداد. الرحمة التي نزلت على الجبال أقصى الشمال، غلبت الشعاعات النارية وخففت من قساوة الحرّ. وصل لسان السيل إلى مراعي القبيلة مع الأصيل فتنادى الرعاة وتجمهر الناس وانتشروا على طول الوادي يتمتعون بمشاهدة المعجزة. خلت البيوت وزحفت إلى النهر حتى العجائز. تعرّى الأطفال وزحفوا على أيديهم وبطونهم محاولين السباحة في

الماء الضحل. الأحجار والأشواك أصابت الكثيرين بجراح فهرعت الأمهات وانتزعنهم من الماء. حذرت العجائز:

ـ ايّاكم وأن تطمئنوا إلى السيل. فوق لسانه جنّ وفي ذيله دائماً غدر.

ولكن الجيل المحروم الذي لم يشهد في حياته سيلاً، وسمع عنه فقط في خرافات العجائز، انشلّ من الدهشة.

«تازيديرت» تنتمي إلى هذا الجيل.

استيقظت مبكراً وهشّت أغنامها عبر المنحدرات نحو الوادي عندما رأت المعجزة. الماء يرتفع بضعة أشبار على أرض عذبها الجفاف والشمس ولم تذق طعم الماء عشرات السنين و.. يجري. أكثر ما أثار دهشتها أن السائل النفيس، العجيب، من الوفرة بحيث تجمّع في مكان ما وجرى.. تدفّق.. انساب بين الصخور، حول الشجيرات اليابسة، فوق الأرض العطشى.

سبحان الله!

توقفت كالمشلولة. نسيت نفسها. عجزت عن النطق. سرحت في المجهول. لم يتجمّع السحاب، ولم تسقط قطرة مطر واحدة، فأين يمكن أن يتجمع كل هذا القدر من الماء بحيث يستطيع أن يتدفق في الوادي العطشان؟ الوادي الشره الذي رأت كيف يبتلع قربة ماء كاملة في رمشة عين.

جدتها أخبرتها في الخرافات أن الأمطار تسقط على المرتفعات في جبل الحساونة، أو جبل نفوسة، في أقصى الشمال، ثم تنحدر عبر الشعب وتصب في الأودية. تتجمع هناك ثم تبدأ مسيرتها نحو السهول في الجنوب. ولكنها لم تصدّق يوماً هذه الخرافات. لم تصدّق أن السماء يمكن أن تجود بهذا القدر الوفير من الماء الذي يستطيع أن يقطع كل هذه المسافات في الحمادة دون أن تستولي عليه الأرض البائسة وتمتصه في منتصف الطريق.

ها هي ترى الخرافة بعينيها.. المعجزة.

ما زال قلبها يخفق بشدّة عندما اقتربت من حافة الوادي وتأملت السائل النشيط وهو يجرف البعر والقش، يغمر الأحجار، ويلتف حول الشجيرات البرية في شقاوة.

سمعت شوشرة الماء لأوّل مرّة.

لم تصدّق أيضاً.

اقتربت خطوات. ترددت. ترنحت. مدّت يدها. لامست السائل. انتفضت. استولى عليها شعور غامض ولكنه لذيذ. عادت ودست يدها في الماء. بارد، رحيم، حنون، خفيّ.

انحنت فوق النهر وأنصتت للغة المجهولة. أنصتت طويلاً. استمرّ قلبها يرتجف. رفعت رأسها. رأت القبيلة تزحف نحو الوادي وتنتشر عبر السفح. أدركت أن الماء حقيقي. عادت تنحني فوق النهر وتنصت للضجيج الغامض.

ثم بدأت تحاول تقليد الصوت:

ـ غر.. غر.. رق.. رق.. رق. لق.. لق.. لق.

ـ ٢ ـ

يروى أن المجاعة أهلكت نصف القبيلة في تلك السنوات.

نجا القليلون الذين تشبثوا بحياة بائسة في الواحات. أبوها تركها عند جدّتها والتحق بالقبيلة في الحمادة عندما تحالف الجفاف في الصحراء مع العدو في الشمال. كسر الطليان المقاومة في السواحل وبدأوا يغزون الجبل تمهيداً للتوغل في الجنوب. شارك الأب قبيلته مأساتها ومات أيضاً بالجوع

قبل أن يتمكن الطليان من الوصول إلى الحمادة. أمّها تنتمي إلى قبائل «ايفوغاس»، تخلّت عنها أيضاً قبل أن تبلغ التسعة أشهر وماتت بوباء مجهول.

لم يطل بهم المقام في الواحة. اقتحم الطليان الصحراء الجنوبية، ودارت المعارك في رملة «زلاّف». تكبّد المجاهدون خسائر قاسية أجبرتهم على التراجع جنوباً والاحتماء بالصحراء الرملية، فوجد الغزاة طريقاً مفتوحاً للدخول إلى الواحات.

انتشر الخبر الفاجع قبل وصولهم إلى الواحة بأيام، وتناقل الرواة قصص التنكيل، فعمّت البلبلة، ورحل الرحّل وتركوا الواحة للفلاحين.

تشتت القبائل. هاجرت عشائر إلى آير وبلاد السود، ورحلت عائلات أخرى إلى تونس والجزائر وتمبكتو، وبقت بقايا الشتات تتنقل في الحمادة التي تعاني من استبداد الشمس وقساوة الجفاف الطويل.

التحقت مع جدّتها ببقايا القبيلة التي فضّلت البقاء في الحمادة العارية. لم يشمل العراء الوحشي الحمادة البائسة، ولكنها تذكر جيّداً تلك السماء القاسية، العارية من السحب. لم تحتجب الشمس المستبدّة بسحابة واحدة طوال تلك السنوات، فاستمر الجفاف والمجاعة، وعاشت «تازيديرت» مع جيل كامل، محرومة من المطر ورؤية السحب.

لم تر الماء يجري. لم تشاهد السيل.

شاهدته فقط بعيني جدّتها. تجلس بجوارها حول موقد النار الخابئة في مدخل الخباء عندما تفرغ العجوز من ترديد التعاويذ، تتشبث بطرف لحافها الأسود وترجوها أن تحدّثها عن السيول. ولم تكن العجوز تستجيب لتوسلاتها في كل مرّة. بل كثيراً ما تتملّص وتختلق المبررات لتتخلّص، ولم تدر «تازيديرت» وهي طفلة ما تسببه هذه القصص للعجوز من ألم.

مرّة رأتها تقوم بحركة مفاجئة بعد سردها لإحدى قصص السيل: رشّت الموقد بالماء وأطفأت النار. احتضنت عمود الخيمة ودسّت رأسها بلحافها وبكت طويلاً. وفي مرّة أخرى انهارت في أثناء السرد واستولت عليها نوبة طويلة من النحيب. ثم أصبحت تبكي في اثناء السرد. لم تعد تحاول أن تخفي دموعها كما كانت تفعل في الماضي. فتروي الأساطير المثيرة عن سيول عظيمة شهدتها الصحراء في الزمان القديم فظلت السماء تمطر والأرض تسيل بالماء شهوراً كاملة، وفي هذه الأثناء تسيل الدموع بهدوء على وجنتيها البارزتين الشاحبتين دون أن تمد يدها لتمسحها. وأكثر ما أثار تازيديرت في قصص العجوز أن السيل لا بد أن يجرف رجلاً أو امرأة أو طفلاً في طريقه عندما يأتي. لم يدهشها أن ينزل خسائر بالحيوانات التي تتخذ من الوادي دائماً مأوى، ولكن لماذا عليه أن ينزع البشر أيضاً إلى جانب الحيوان؟ حيّرها اللغز، فسألت الجدّة عن هذا السلوك. قالت العجوز:

ـ لأن الأشقياء في هذا الزمان يبخلون بالقرابين ولا يفون بالنذور. يظنّون أنهم يستطيعون أن يخدعوا السماء. فيضطر السيل أن يأخذ منهم حقه بالقوة.

سألت تازيديرت:

ـ ألا تكفيه أرواح المعيز والإبل؟ أليست الحيوانات قرابين أيضاً؟

أجابت الجدة بكلام عاش في ذاكرةالحفيدة إلى الأبد:

ـ الحيوانات قرابين صغيرة لم تخلق للسيل. السيل صعب. السيل لا يقنع إلا بدم الإنسان. لو كان السيل سهلاً لما غاب عشرات السنين وحرمنا من الحياة نصف عمرنا.

أما «تازيديرت» فقد حرمها السيل من العمر كلّه.

- ٣ -

لا تذكر من حياة الواحة سوى عدوّين: الرمضاء والعجاج.

تذهب إلى أحراش النخيل لتأتي بالبرسيم إلى الماعز. في تلك الأثناء تكون الشمس قد ارتفعت وأشعلت النار في الرملة فتعترض طريقها الرمضاء عندما تعود حاملة الرزمة الخضراء فوق رأسها. كثيراً ما اضطرت إلى الزحف على بطنها كالأفعى وحمل البرسيم يسحق رأسها. وفي مرة لحست بطن قدميها بلسانها لتطفىء اللهب، وفي مرات أخرى تدحرجت كالكرة وهي تجرّ كتلة البرسيم بحبل. لم تجدِ شكواها لجدتها من قسوة الرمضاء. العجوز تتمتم بالتمائم وتجيبها بأن الصبر في الحياة أقوى من تعاويذ السحرة. وقالت لها: «ليس عبثاً سمّوك تازيديرت(*)». وبدل أن تتسلح بأقوى تعويذة في الحياة وتقدّم الدليل على استحقاقها لاسم «تازيديرت» ذهبت إلى الحقل وعادت بربطة برسيم كبيرة فرشت بها الطريق وحمتها من لهيب الرمل. اضطرت الجدّة أن ترجو أحد الفلاحين كي يصنع لها نعلاً من السعف.

ولكن نعل السعف أيضاً لم ينفع. كان سيىء الصنع. تآكلت عقدة القطعة اليمنى فتحلل النعل كله منذ اليوم الأول. فاستعملت النعل الأيسر للقدمين بالتناوب حتى تلف أيضاً بعد يومين.

اكتشفت أن الرمضاء في الواحة قضاء مكتوب فاحتمت منه بتعويذة الجدّة: الصبر! أمّا العجاج فحطم رأسها بالصداع ونوبات الغثيان.

الواحة تقع في نقطة التماس بين الصحراوين: الشمالية الطينية والجنوبية الرملية. ترتفع سحب العجاج الكثيف كلما هبت رياح القبلي، حتى تحجب قرص الشمس وتحوّل النهار إلى ظلمات. تذكر أن العاصفة خيمت في إحدى الغزوات عدة أيام متتالية فسجنت الناس في بيوتهم

(*) تازيديرت: الصبر (بلغة الطوارق).

وأطاحت بالأكواخ وأشجار النخيل وطمرت الزرع وعيون الماء.

تلك العاصفة جاءت بنوبات الصداع والغثيان.

ثم هاجروا إلى الحمادة.

في صحراء الشمال اختلف الطقس وطبيعة الأرض. خفّ لهب الأرض وهدأت العواصف المحملة بالغبار. ولكن قرص الشمس لم ينطفىء فسلّط عليها وحشاً آخر أشرس وأبشع.

في الشهور الأولى لم تتعرض طويلاً لويل الشمس. كلّفتها الجدّة بجلب الحطب وساعدتها الشمس نفسها في إنجاز مهمتها: أحرقت النبات وحوّلت كل شجرة خضراء إلى حطب يباب. ولكن استمرار الاستقرار في الأودية وإسراف القبيلة في استعمال الحطب اضطرها إلى الابتعاد عن المضارب وجلب الحطب من الأودية السفلية البعيدة. انفردت بها الشمس وعطشت مرات، ولكنها لم تفقد الوعي إلى الحد الذي يجعلها تضيّع الطريق إلى النجع.

هذا حدث بعد أن سلموا لها الجديان وكلّفتها الجدّة بالرعي.

الجديان! يا ربي ما أشقى الجديان! سمعت كثيراً من الصبايا عن شقاوة هذه المخلوقات ولكنها لم تتصوّر أن يفوقوا الرمضاء قساوة، أن يفوقوا الشمس في التنكيل بالناس. في الأيام الأولى رافقتها قرينتها «تميما» إلى المراتع الشحيحة في السهول الغربية.

تميما صبيّة مرحة حيوية تكبرها بعامين قضت كل حياتها في الحمادة، ذاقت المجاعة وعانت من الشمس. تعلمت الصبر واكتسبت مناعة ضد شقاوة الجديان. تضفر لها أمّها شعر رأسها في جدائل رفيعة طويلة تشبكها إلى الخلف في كتلة مضحكة كأنها تاج من شوك، ويروق لها أن تشد خصرها بحبل من الليف، وتتنقل في الأودية، تقفز فوق الصخور برشاقة

الجديان و.. وتغني. تغني وترقص أحياناً أيضاً وتحلم باليوم الذي ستبلغ فيه السن المناسب كي تتزوج الصبي المتكبر «أخنوخن». وهي دائماً حائرة في الاختيار. لا تكف عن الاستفسار أيّ الصبيان أنسب لأن يكون عريساً. تختار اليوم أخنوخن لأنه متكبر ومتعجرف، ثم تنسى قرارها، أو تتراجع عن إصرار، لتختار «أمود» في اليوم التالي لأنها لاحظت بالأمس أنه يفوق أخنوخن كبرياء، وعمامته أكبر من عمامة أخنوخن.

خلال هذه الأثناء لا تكف عن الرقص والغناء ومطاردة الجديان الشقية في الأودية والسهول والتلال وشقوق الجبال من دون أن يصيبها الإعياء أو تتفصد من جبينها قطرة عرق. أما هي ابنة الواحة التي لم تعلمها الحمادة كل هذه الحيل ولم تهبها الحياة تعويذة الصبر السحرية إلّا في الاسم، فإن التعب يكون قد هدّها وبللت ثوبها بالعرق وجف حلقها من العطش وتخلفت عن رفيقتها مسافة طويلة.

وكانت تميما تلوّح بعصاة السدر في الهواء وتميل إلى الوراء وهي تضحك. وما أن ترى الشقاء على وجهها حتى تكف عن الضحك وتعزيها قائلة:

ـ هذه هي الجديان. هل تظنين أن رعي الجديان أمر سهل؟

كانت تستفزها بهذه العبارة دائماً.

ملّت تازيديرت في إحدى الرحلات وسألت رفيقتها:

ـ لماذا يسند لنا الكبار رعي الجديان إذا كانوا يعرفون أنها بهذه الشقاوة؟

كانتا تستلقيان تحت شجرة سدر وحيدة في سهل عار مكسو بأحجار شرسة سودتها أشعة الشمس. قالت تميما الحكيمة وهي تعبث بعود السدر المكسو بالشوك الأشيب:

ـ الكبار يفعلون ذلك خصيصاً كي ينتقموا لطفولتهم الشقية. هم أيضاً

هانوا من الجديان عندما كانوا صغاراً. ها.. ها.. ها..

ـ هذا ليس عدلاً. على الشيوخ العقلاء أن يتولوا الجديان. رعي الجديان يحتاج إلى التدبير. والتدبير في رؤوس العقلاء، الشيوخ.

ـ التدبير هو الذي أشار عليهم بهذه الحيلة. التدبير يقضي أن يتظاهروا بأن رعي الإبل والماعز أصعب، ويولون الصغار رعي الجديان الملعونة. سيجيء اليوم الذي أسلّمها فيه للذئاب. ها.. ها.. ها...

ـ هذا ليس عدلاً. العدل أن يعطونا الفرصة لنسرح بالأغنام والإبل.

ـ ليس في الدنيا عدل. قلت لك إن التدبير حيلة. أمي تقول إن الحياة حيلة.

ـ الكبار أجدر بتربية الصغار. هل يستطيع الطفل أن يربي طفلاً؟ هل يرعى الطفل طفلاً؟

ـ قولي هذا الكلام لجدّتك. ها.. ها.. ها...

ثم أحكمت شدّ الحبل حول خصرها، وزحفت على ركبتيها تلاحق ظل السدرة الهارب، وقالت:

ـ دعينا من الجديان. هيا نتحدث عن العرسان. هل اخترت عريساً؟

قالت تازيديرت بيأس وهي ما تزال تفكر في الجديان:

ـ وما فائدة العرسان؟

ـ وهل في الدنيا أجمل من العرسان؟ ها.. ها.. ها..

ـ أغبياء ومغرورون! السيل أجمل.

رقدت تميما على بطنها. أسندت ذقنها بيدها ودست يدها الأخرى في التراب. قالت:

ـ ليس في رأسك غير المطر والسيل. والمرأة خلقت لتكون عروساً والرجل خلق ليكون عريساً. لا أعرف شيئاً آخر.

ـ وأنا لا أعرف شيئاً آخر. ما فائدة الرجل بدون سيل؟ ما فائدة الأرض بدون مطر؟ السيل وحده يستطيع أن يطفىء الشمس ويقضي على الوحوش الثلاثة.

ـ الوحوش الثلاثة؟

ـ الرمضاء والعجاج والعطش.

ـ ها.. ها.. ها.. ليس في رأسك غير الرمضاء والعجاج. الواحة تطاردك حتى في الحمادة.

ـ طول عمري أحلم بالسيل. لم أر سيلاً في حياتي. حدثيني عن السيل.

ـ ليس قبل أن تحدثيني عن أعراس الواحة.

ـ حدثيني عن السيل أولاً. أنا التي اقترحت قبلك. أستحلفك برأس أمّك.. برأس أخنوخن.

ـ ها ـ ها.. أنا نفسي لم أر السيل إلا في الأحلام.

عمّ الصمت. أغارت ذبابة سمينة واستقرت على ساق تميما العارية. طردتها برجلها الأخرى وأنصتت للسكون. من الوادي انبعث ثغاء بعيد. رفعت رأسها نحو تازيديرت، فرأت في عينيها كآبة وهي تتابع الخلاء المغمور بالسراب، ثم رأت كيف انبثقت من عينيها الدموع.

ـ ٤ ـ

انتصف الصيف فمرضت «تميما» بالحمّى. خرجت «تازيديرت» للرعي وحيدة. لجأت لمراتع الأودية الغربية لأنها أقرب وحواشيها غنية بالأشجار البرية الظليلة. استبدّت الشمس منذ الأصيل ووعدت بيوم جهنّم. هنأت تازيديرت نفسها على اختيار المرعى. ولكن الجديان الشياطين لم تتركها تهنأ بالظل. ما أن تستقر تحت السدر أو تدس رأسها بين أوراق الرتم وتتهيأ لالتقاط نفس وقضم حبة تمر حتى تكتشف أن الأشقياء قد تدفقوا في الوادى وغابوا عن البصر. تعيد التمر إلى الجراب وتنطلق خلفهم. لجأت عدة مرات إلى حيلة لئيمة تعلمتها من تميما: تقطع الوادي المتشعب وتتجه إلى الشرق أو إلى الغرب فتختصر المسافة لتلتقي بالجديان في المنعطف، ولكن تميما حذرتها من المبالغة في استعمال هذه الحيلة لأن الذئب كثيراً ما يستغل الفرصة ويقطع الطريق على الجديان قبل أن تبلغ الناحية الأخرى من الوادي.

دقّ قلب تازيديرت بمجرد أن تذكرت الذئاب وسرعة هذه الوحوش في الفتك بفريستها. لم تر ذئباً ولم تسمع حتى العواء. ولكن أساطير القبيلة وأفواه العقلاء لا تنطق إلا ببطولات هذا العدو. وتصوّرت هذا الوحش اللئيم وهو ينفرد بقطيع الجديان المسكينة في غيبتها ويتنقل بأنيابه المخيفة بين رقابها كما يفعل في الخرافات.

كفت عن قطع الأودية وفضّلت المطاردة.

في كل مرّة تدرك فيها القطيع تجد جدياً واحداً يقود السباق ويجرّ خلفه بقية القطيع، جدي شقي لم يمر على ولادته شهر واحد، فطمته جارتهم غصباً وحرمته ليس من حليب الأم وحده ولكن من الأم نفسها. ربطتها إلى وتد في مدخل الخيمة وحرّمت على الجدي الاقتراب منها. قالت إنها تريد أن تنقذ بحليبها طفلها المعلول المصاب بفقدان الشهيّة. في الأيام الأولى

لفصلهما لم يتركا أحداً ينام في كل البيوت القريبة. كانت تسارع إلى شد الجدي إلى وتد مع بقية القطيع، فيرفع عقيرته بالثغاء والشكوى، فتستجيب لشكواه أمه المحبوسة بجوار الخباء. كان ثغاؤهما كالصوت والصدى. يصيح الجدي فترد عليه الأم بصيحة في الناحية الأخرى. وكان بثغائه الملحاح يثير حقد التيوس وخاصة المعيز فتنطحه بقسوة لتجبره على السكوت. وكثيراً ما استيقظت جدّتها على ضجيج هذا القمع، وسمعتها تتمتم في الظلمة بـ «لا حول الله» أو تسترسل في ترديد بعض التعاويذ أو الآيات. أمّا تميما اللعينة فقد أعلنت عن رأيها في موقف المرأة القاسية فقالت لها في المرعى: «سواء فرقت بين المعزاة وابنها أم لم تفرّق فإن الولد سيموت. ها.. ها.. ها..». غضبت تازيديرت من هذا الكفر ولم تبادلها كلمة واحدة طوال ذلك اليوم. هذا الجدي هو قائد السباق. كلما أدركته واعترضت طريقه يقف في مواجهتها في تحدّ، ينظر إليها بعينين شرستين كأنهما عينا إنسان ثم يحني رأسه ويحفر الأرض بحافره الأمامي في حركات عصبية متكررة كأنه ينوي مهاجمتها فيتذكر أنه ما زال مجرّداً من القرون فيصيح بصوت حاد رافعاً رأسه إلى السماء، ثمّ يثب جانباً وينطلق يتقافز فوق صخور الوادي كالغزال.. كالودّان.

في البداية كان سلوكه يضحكها. تضحك برغم التعب والغضب. ففي كل مرّة تدرك فيها القطيع وهي تجري وتلهث وتتصبب بالعرق، تكتشف أن الجدي اللعين على رأس الحملة. ولكن مع تكرار هذه النظرة الغاضبة الشرسة المجهولة، بدأت تحس بخوف غامض و.. قشعريرة كأن هذا الشقي ليس جدياً وإنما مخلوق يسكنه إنسان شرير. ليست نواياه العدوانية ورغبته المبكرة في النطح سبب هذا الشعور ولكن تلك النظرة الوحشية الشيطانية الخفيّة.

عيناه لا تشبهان عيون الجديان الأخرى، تنطقان بشيء آخر لا يوحي بأنه مجرّد غضب أو حقد.

ثم شعرت هي بالغضب والحقد. غضبت وحقدت لأنها لم تستطع أن تتغذى بالتمر أو تشرب من ماء الزمزمية أو تستلقي تحت الظل لالتقاط النفس. لعنت الجدي والشمس والواحات و... نفسها. لعنت نفسها أيضاً لأنها لم تستطع مثل تميما أن تسيّس الجديان برغم مرور كل هذا العمر في الحمادة.

حاولت أن تكتم الغيظ فانبثقت الدموع. تناولت حجراً وركضت خلف القطيع. اجتازت الرؤوس الخلفية وواصلت الجري. دار في الوادي وانحرف يميناً فالتزمت الجانب الأيسر وركضت عند الحافة. أخيراً أدركت الجدي المشؤوم يتقافز في الهواء كالممسوس ولا يدع فرصة للبقية كي تهدأ وترتع. الجديان لا تلتفت لكلأ أو لشجر مهما بلغ بها الجوع إذا اندس في وسطها جدي مغامر. هذا الجدي الشقي لا يهدأ حتى يسلمها إلى الذئاب. تقول الخرافات.

وقفت في مواجهته، مبللة بالعرق. حلقها جف. فمها جفّ أيضاً. اقتربت خطوتين. حذّرها بعينيه الوحشيتين. أحنى رأسه، ولكنه لم يحرّك حافره الأيمن. رفعت قبضتها في الهواء، وضربته بالحجر على رأسه وهي تصرخ صرخة حقد، ولكن الجدي الممسوس لم يتحرّك، ولم يبد أن الضربة آلمته. رفع نحوها عينين غاضبتين. التعبير المجهول ازداد فيهما وضوحاً وغموضاً. هل هو وعيد؟

أحست بقشعريرة مجهولة.. قشعريرة كتلك التي يثيرها فحيح الحيّة.

تراجعت إلى الوراء، وانهارت تحت رتمة في عجز. تمنّت أن تنفرد به الذئاب. أضافته إلى الشمس، العدو الأول، ولعنته في سرّها.

تناولت الزمزمية، وشربت في جشع. سال الماء على صدرها، فتذكرت السيول. سالت الدموع على وجنتيها.

- ٥ -

في ضفة الوادي المقابلة ترتفع ربوة مقوسة مثل السنام. سكبت الشمس فوقها عرفاً من اللهب فتسكع وتراقص واندلق على السفح فحرق الشجيرات وشق الأحجار فغرق الخلاء في السراب واللهب.

القيلولة.

هجعت في ظل الرتمة، ولم تشعر كيف سرقها النوم. أغفت لحظات فقط، ولكنها رأت حلماً: جمهرة النساء المتشحات بالسواد تجمعن في الخلاء ومشين في العراء حتى حجبهن الأفق. شعرت بالقلق فجاءتها تميما ضاحكة وأخبرتها أنهن ذهبن لدفن الجدي الشقي. رفعت رأسها إلى أعلى كي تتمتم بشكر السماء فقرصتها تميما في عجيزتها فانتفضت. استيقظت من الغفوة وهي تهرش عجيزتها. استمر الإحساس بالقلق. نفس القلق الذي أحسته وهي تشاهد التجمع المشبوه في العراء.

ثم تذكرت القطيع.

- ٦ -

اضاعت أثر الجديان في نهايات الحمادة. العراء الفسيح أفضى إلى أرض صارمة في الغرب. الأودية والشعب العليا أدّت إلى جبال رماديّة عارية، تفتح أفواهاً ظلماء موحشة.

وقفت فوق القمة، ورأت تحتها في الهاوية صقراً يفرد جناحين ثابتين ويحوم في دائرة محصورة داخل الطوق الجبلي القاسي، تنعكس خيوط الشمس الغاربة على جناحيه بين حين وآخر فيلمع ريشه ببريق مدهش.

جلست فوق الصخور السوداء المصهورة بالشمس الطاغية وشربت من الزمزمية. انتظمت أنفاسها وبدأت أطرافها المشدودة تسترخي وتنعم بالخدر

والسكون. تعلقت بالقرص الأرجواني المعلق في الأفق عند نهاية الأودية السفلية. من موقعها السماوي، فوق القمة، تبدو الشجيرات البرية العطشى المتناثرة في الأودية السفلية، بائسة تعصر القلب. وبرغم هذا الشعور الكئيب الذي تثيره فإنها ترسم تحت شعاعات الغروب الأرجوانية جمالاً حزيناً ممتعاً.

تذكرت أساطير القبيلة حول التحوّل الذي تشهده هذه الأرض الرمادية القاسية عندما يرق قلب السماء وتحن على الصحراء بالسيول. تنفطر الأرض وتنشق الأحجار عن ألف نوع من النبات. تخضر الصحراء في بضعة أيام، وتتغطى الأودية الجرداء بالأحراش، وتتفتح زهور سحرية تصيب حدّة رائحتها الرعاة بالدوار. جدّتها كثيراً ما تتحدّث عن ربيع الحمادة كفردوس مفقود حرم الله منه أهل الصحراء عقاباً لهم على أعمالهم. تغمض عينيها وتتمايل برأسها يميناً ويساراً كالمجذوبة عندما تأتي على سيرة الترفاس. تثنى على الأعشاب أيضاً، تانسميمت، أكرفال، تاناكفايت(*) ولكن الوجد لا يستولي عليها إلا لمّا يجيء ذكر ثمرة النعيم: الترفاس!

نسجت الخرافات عن النوع الأسود، شكله، حجمه، لونه، شذاه، وطعمه الأسطوري. ومن كثرة ما سمعت تازيديرت هذه الأساطير أصبحت تجاري العجوز في طقوس الوجد. تترنح يميناً ويساراً مع نهاية كل حكاية. تتحسَّر لأنها لم تولد زمان السيول وتبكي في فراشها خفية حنيناً على الفردوس الضائع.

حظها التعس شاء لها أن تولد سنوات الجدب والمجاعة واستبداد الشمس والغزاة. أصبح الحنين إلى السيل هاجسها المجهول، جنّتها المفقودة، أملها الوحيد. الصبايا يتعطشن إلى يوم يدخلن فيه عرائس على

(*) تانسميمت، أكرفال، تاناكفايت: نباتات صحروية تنمو في الحمادة الحمراء.

عرسان متوجين بالعمامات الزرقاء، يتربعون فوق عروش الرمل بجوار العمود، وهي تتعطش إلى يوم تتجهم فيه السماء وتطفىء القرص المستبد، تذرف دموع الغضب والرحمة على المرتفعات الشمالية لتغرق الصحراء بسيل يجرف الدنيا. وكلما صرحت بأملها لـ «تميما» ضحكت وقالت إنها مجنونة. في رأيها أن لا شيء في الدنيا يستحق أن يُعشق غير الرجال. تميما حظها أفضل. عندما كانت هي تقيم في الواحات تمتعت تميما بمشاهدة بعض السحب المطيرة العابرة. وفي إحدى السنوات شاهدت خيطاً متعباً من سيل. ادّعت أن هذا حدث مرتين برغم أنها تشك في صدق تميما. ربما ساعد هذا الخيط الصغير المنهك من الماء في إرواء عطشها. هي لا تتعطش مثلها للسيل وإنما.. للرجال.

انطفأ القرص الأرجواني وبلعه الأفق، ولكن الصهد استمرّ يتصاعد من الأرض، والأحجار المشوية ظلت تنفث البخار. الصقر المارد ما زال يسبح في عتمات الهاوية. تازيديرت تجلس على الصخورالرمادية في المحراب الوحشي المهجور، تطل من قمتها السماوية على الأودية المغمورة بالصمت والغموض، فتبدو في زحف الظلمات كجنيّة يافعة تحلم بالفردوس. لم تتذكر حتى تلك اللحظة جديانها المفقودة.

- ٧ -

ليس الخوف من الموت هو الذي جعلها تعد بالنذر في تلك الرحلة وإنما الشوق.. الهاجس.. الحنين.. التوق الأبدي إلى السيل المجهول.

العطش رفع الحجاب وجاءها بالوحي.

نفد الماء فتوسدت الزمزمية في واد ضيق في طريق العودة. برغم الإعياء إلا أنها لم تنعس إلا في آخر الليل. سمعت عواء الذئاب وهمهمات الجن، ورأت الأشباح وهي تتسكع في العراء تحت ضوء قمر شاحب. رأت الصقر

المارد وهو ينقض في هجوم عمودي على الجدي الشقي في قاع الهاوية الظلماء.

استيقظت ونعست عشرين مرّة قبل أن تغمر الشمس الطاغية الصحراء بألسنة اللهب. واصلت الرحلة. بحثت عن الطريق إلى المضارب. الارض الجبلية المفروشة بالصخور الرمادية ابتلعت أثرها كما ضيعت آثار الجديان. ارتفع القرص القاسي بضعة أشبار فوق الأفق. توجهت نحوه بخطوات واثقة كأنها تتحدّاه وتذهب غازية لتأتي برأسه أو قررت أن تضع حدّاً لآلامها وقصدته لتسلم له نفسها. لأنه مكتوب في معجم الصحراء أن يسلّم كل من فقد الطريق إلى بيته أمره إلى الشمس المتجبرة، فتنجي من تشاء وتأخذ من تشاء. ما أكثر من نجا وما أكثر من تاه إلى الأبد ولم يعثر أهله حتّى على هيكله العظمي. سارت باتجاه القرص المشتعل حتى الأصيل.. حتى القيلولة. احترق رأسها العاري وبدأ مخها يغلي. استقر القرص على عرشه السماوي ففقدت الاتجاه.

بدأت تتعثر. سقطت ونهضت. تكرر ذلك مرّات قبل أن تتوغل في غزو الشمس ويبدأ جلّاد الكائنات في الهجوم المضاد. أطلق في وجهها غيمة أخرى لحجب الرؤية. ولم يمض وقت طويل حتى أعقبها بغيمة أخرى على العقل. هنا ركعت على ركبتيها وانتزعت التعاويذ الملفوفة على جيدها في عقد من المثلثات الجلدية باحثة عن الإبرة. الحرز مكوّن من ثلاث قطع علّقتها الجدّة في رقبتها قبل أن تعرف الطفلة معنى الحياة والمستقبل والموت. قالت لها إنها اشترتها من عرّاف الواحة بثلاث معزات. الأولى تساعد في ترويض الجن، والثانية خاصة بإحباط مكائد الإنس. أما الثالثة فهي لحماية العقل من الخبل، وهو مرض شائع في الصحراء، عانت منه القبائل المجاورة وهدد أنبل الرجال وأجمل النساء بأن يتحولوا جميعاً إلى دراويش.

الخوف من الدروشة جعل الجدة تحرص على تحرير هذه التعويذة

النفيسة وتدفع للعراف ثلاث معزات كاملة ثمناً لها برغم أن الحصن الأول والثاني يمكن مقايضتهما بجدي واحد.

عثرت على الإبرة. تناولتها بين إصبعيها المرتجفتين، وبدأت توخز ذراعها بقساوة وخزات سريعة متتالية. انكبت على الذراع لتمتص الدم. لم تحس بألم في اثناء الوخز، كما لم تحس بأن سائلاً تفصّد من الذراع. انهارت على الأرض القاسية وهي وتلهث، ثم عادت فجلست وانهالت على ركبتها اليمنى بالوخزات. مدّت فمها ومصت الركبة. لم تحس بطعم. ربما تبدد الدم من الجسد كما تبخر الماء مع البخار والصهد. أفلتت الإبرة وحشت رأسها في التراب. مضغت الطين الملتهب الممزوج بالحصى فلم تحس بطعم أيضاً.

فجأة ومض رأسها بصفاء. وعدت بالنذر الجسيم في وميض هذا القبس الخاطف. ثم غابت مرة أخرى. استسلمت لزحف موجة جديدة من الظلمات.

- ٨ -

التقطوها في قلب القيلولة.

مكثت في الغيبوبة ثلاثة أيام، تهذي وتثرثر وتتحدث بكلمات مبهمة عن متناقضات لم تجد لها العجوز معنى. سهرت على رأسها الليالي الثلاث تقرأ التعاويذ وتتمتم بآية الكرسي. تغلي المراهم والأعشاب وتبدأ في مخض الحليب مع مطلع الفجر. العجائز أكثر رحمة بالصغار عندما يمرضون. انتهزت الفرصة وقررت أن تتدلل.

في صباح اليوم الثالث كشفت عن رأسها وسألتها:

ـ لماذا خلق الله الصحراء صحراء؟

لم تتوقف العجوز عن التمايل مع قربة الحليب يميناً ويساراً. رمقتها بفضول. ابتسمت قبل أن تجيب:

ـ لكي تكون مأوى لمن أراد أن يكون حراً.

ابتسمت تازيديرت أيضاً. تنقلت ببصرها بين ألسنة اللهب في الموقد ووجه العجوز الممصوص بوجنتيه الغائرتين. سألت بعد صمت:

ـ وهل أهل المدن عبيد؟

أجابت بلا تردد:

ـ طبعاً عبيد.

ـ وأهل الواحات؟

هزت رأسها موافقة قبل أن تدعم موقفها باللغة:

ـ أيضاً عبيد. كل من رضي أن يعيش تحت رحمة عبد آخر فهو عبد، كل من نام تحت سقف أو أقام تحت جدار، كل من استقرّ في أرض.

ـ وسكان الأدغال؟ هل سكان الغابات أيضاً عبيد؟

هزّت رأسها بالإيجاب، فسألت تازيديرت:

ـ ولكنهم لا ينامون تحت السقوف ولا يقيمون تحت الجدران؟

ـ هناك يعيشون تحت رحمة الخوف. كيف يكون حرّاً من نام وهو يرتجف خوفاً من نمر أو ثعبان؟

ـ ولكن في الصحراء يموت الإنسان أيضاً من الجدب.

ـ يموت وهو يعرف. الإنسان لا بد أن يموت إذا أراد أن يكون حرّاً.

ـ وما نفع الحرية في الصحراء إذا كان مكتوباً على جبين الإنسان أن يموت؟

ـ وما نفع الحياة في العبودية؟

استمرّت تتمايل في إيقاع منتظم مع قربتها. وجنتاها ازدادتا شحوباً وغوراً. على شفتيها رقص مشروع ابتسامة كئيبة.

في المساء زارتها تميما فسألتها عن الجدي. حدقت في وجهها طويلاً بعينيها الضاحكتين قبل أن تنكس رأسها وتتكلّم:

ـ وماذا تتوقعين؟ ليس وحده الذي ضاع. الذئاب قضت على نصف الجديان قبل أن يدركها الرعاة.

ثم اختلست نحوها نظرة خبيثة وقالت بنغمة ذات معنى:

ـ طفل الجارة المعلول أيضاً مات!

ـ ٩ ـ

كبرت العذارى.

لم يتأخر فرسان القبيلة فتخاطفوهن. تميما بالطبع فازت في السباق فكانت أول من دخل على عريس.

فازت في المباراة الثانية أيضاً وأنجبت ثلاثة أولاد. تجيء لزيارة تازيديرت كثيراً لتروي لها الأساطير عن مملكة الزواج. تجرّ أطفالها وتلوّح الأصغر في الهواء، ثم تتلقفه بمهارة أم حقيقية وتردد بصدق:

ـ لم أندم كالكثيرات. ما زلت أصرّ أن الحياة هي الرجل. لم تعش امرأة لم تذق طعماً لرجل. لن أهنأ حتى أراك بين أحضان أنبلهم. القبيلة لم تعدم الفرسان.

تتعمد تازيديرت أن تستفزها بالدعابة القديمة:

ـ ليس قبل أن تسيل الصحراء.

في احدى الزيارات ملّت تميما الدعابة فصرخت في وجهها:

ـ السيل.. السيل. وإذا لم تسل الصحراء؟ هل تضيعين حياتك في انتظار المجهول؟

كانتا جالستين في ظل العشية. تميما تخلط الشاي الأخضر. أخذت رشفة لاختبار نسبة السكر ثم أضافت بلغة العجائز الحكيمات:

ـ النساء كالزهور، يتفتحن بسرعة ويذبلن بنفس السرعة. الرجال فقط لا عمر لهم، محظوظون. الرجل دائماً فتى يافع. كم أحسدهم يا ربي!

ثم التفتت إليها واستمرت في الحملة:

ـ وأنت تنتظرين السيل. ستذبلين قبل أن يأتي.

ـ سوف يأتي. سترين. لن أستسيغ رجلاً. لن أستسيغ شيئاً.

تمتمت تميما:

ـ ربنا يشفيك! صبية ترفض العرسان تكفر بنعمة ربي. كم تقدم لك حتى الآن؟

بدأت تحصيهم على أصابعها دون أن تنتظر جوابها. استنتجت:

ـ سبعة. سبعة من قبيلتنا. أمّي قالت إنهم بعثوا يخطبونك من القبائل البعيدة. من ايفوغاس.

أغاظتها تازيديرت:

ـ رفضتهم أيضاً جميعاً.

ثم كتمت ضحكة. تنهدت تميما في غضب. انحنت فوق عالة الشاي.

عادت العجوز من زيارة العجائز في المضارب المجاورة. أقبلت بخطوات حيوية برغم ظهرها الذي ازداد في السنوات الأخيرة تقوّساً

وانحناء. وجنتاها الشاحبتان أيضاً ازدادتا بروزاً. أقبلت تجر لحافها الأسود وتقاوم موجات الريح الشمالية المتقطعة. تكومت بجوار تميما وقررت أن تساهم بنصيبها في الحملة. قدمت لها تميما كأساً متوجة بالرغوة. رشفت الطربوش المنقوش وقالت:

ـ ينصر دينك يا بنيتي. قولي لها بالله لا أحد في قبيلتنا يعيش عمر نوح. أريد أن أرى أولادها قبل أن أموت. أليس من حقي أن أفرح بمداعبة ابن الحفيدة مثل بقية العجائز؟ أنتن صغيرات، لا تعرفن أن الأبهى من الولد هو الحفيد. وليس أبهى من الحفيد إلا ولد الحفيد. ما أسعد عجوز عاشت حتى داعبت ولد الحفيدة بين يديها!

تنهدت ورشفت الشاي. أكملت:

ـ وتازيديرت تبخل عليّ بهذه النعمة. تريد أن تحرمني. أنا تعبت. ساعديني يا تميما. أعينيني بالله.

هبّت تازيديرت وجرتهما إلى ساحة أخرى. لم تشد اهتمامهما إلى الطقس ولكن إلى الصحراء. قالت لصديقتها:

ـ الجدّة تعيد وتكرر: كل من أقام تحت سقف أو استقر في أرض هو عبد. تقول ان لا حرية بدون صحراء. لا حرية إلا لمهاجر في صحراء الله الواسعة. هل سمعت برأي كهذا من قبل؟

في تلك اللحظة فكرت في شيء آخر. كتمت خاطراً غامضاً كشف لها دائماً عن معادلة وحشيّة تقول: «الحرية هي الصحراء. والصحراء هي الجدب. الموت. إذن الحرية هي الموت». وكلما انشق قلبها عن الخاطر الغامض تذكرت السيل المنتظر واستولت عليها الرجفة والنشوة. مع الوقت أصبح الخاطر في القلب مثل الوعد الجسيم، سرّها.

- ١٠ -

العجوز أيضاً زينت لها الفرسان الأغراب عندما عجزت عن اقناعها بقبول أبناء القبيلة. لم تصف أبناء ايفوغاس بالغرباء وذكرتها بأمّها الفوغاسيّة وقالت إنهم أبناء خالاتها، والفتاة التي تفوز بابن الخالة محظوظة في الزواج. ولما لاحظت فتورها انبرت تسرد عليها سيراً شيقة عن بطولات وهميّة قام بها الفرسان الأغراب. كانت تختار الليالي القمراء فتخرج إلى العراء وتجلس أمام البيت، في الناحية الأخرى المجاورة لمربط الأغنام، تدس قدميها ويديها في التراب البارد وتبدأ في سرد حكاياتها عن الأبطال. فلم تفتها قبيلة ولا ملّة في طول الصحراء الكبرى وعرضها إلّا ووجدت لفرسانها الشجعان ملحمة بطولية تستحق الإشارة والتمجيد. ولا بد أن تدس قصيدة هنا وأغنية شجية هناك حتى أثارت دهشة تازيديرت التي لم تظن يوماً أن الجدّة تحفظ كل هذا العدد من قصائد الشعر. ثم تختتم الرواية قائلة إنها تلقت خبراً من أحد نبلاء القبيلة تقدم يطلب يدها لابنه البطل. وكثيراً ما خانتها ذاكرتها ونسيت أنها تسرد قصصاً واقعية عن بطولات أبناء القبائل المرشحين للزواج فتنهمك في سرد أساطير سبق لها أن قصتها عليها في الصغر كمجرد خرافات. وكم من مرّة فشلت تازيديرت في خنق الضحك فانطلقت تقهقه بوقاحة فتضطر الجدّة إلى أن تزم شفتيها وتتوقف عن السرد لتؤجل حملتها إلى الغد.

في ليلة فقدت تازيديرت السيطرة على نفسها فانطلقت بضحكة وقحة استنكاراً لهفوة تالية ارتكبتها العجوز فجاءت الضحكة بردة فعل قاسية. سكتت الجدّة فجأة، أشاحت بوجهها ناحية الأغنام ونزعت يديها المدفونتين في الرمل الليلي البارد. سحبت لحافها الأسود على وجهها فبدت في عتمة القمر المبكر مثل شبح بائس. قالت بصوت كأنه يخرج من أعماق بئر: «أردت أن أرى...» لم تكمل الجملة. بدا جسدها الصغير المكّوم في

العراء أكثر ضآلة. قالت تازيديرت بقسوة: «وأنا أردت أن أرى السيل. إحكِ عن السيول».

هي نفسها لم تفهم سبب تلك القساوة، فتوقفت العجوز عن سرد البطولات، وترددت إلى بيت العرّافة، ثم قطعت زياراتها للعرافة وترددت إلى ربوة كثيبة ترتفع في العراء الممتد جنوب النجع اختلق لها الأطفال اسم «صلعة الدرويش»، ولا يعرف أحد مدى شبهها بصلعة الدرويش، ولا يعرف أحد أيضاً عما إذا كانت صلع الدراويش تختلف عن غيرها من صلع عقلاء القبيلة حتى يضطر الأولاد الأشقياء أن يعثروا لها على هذا الاسم المدهش.

وجد الأهالي أنفسهم يرددون الاسم، ووجدت العجوز نفسها مضطرة أن تقضي فوق الربوة عدة ليال ظلماء بعد أن خيبت العرافة ظنّها في وجود ما يمكن أن يشير إلى اقتراب الخلاص من النكبة.

استطاعت العجوز أن تختلس عدة زيارات للربوة قبل أن تكتشف تازيديرت غيابها. نهضت في ليلة لتقضي حاجتها في العراء فرأت شبحاً هزيلاً مقوساً يتسكع في الخلاء. ظنت أنه من أشباح جبل الحساونة فأشاحت عنها بوجهها وقرأت آية الكرسي ولكن الشبح لم يختف بل اقترب ببطء وزحف نحوها بوقاحة. توقفت وانتظرت أن تتلقى صفعة أو بصقة أو حركة استفزازية مشابهة. ولكن الشبح لم يلتفت واستمر في زحفه حتى توقف في مدخل الخباء. عادت إلى البيت فوجدته ينتظرها هناك. في الظلمة عرفت فيه عجوزها. سألتها عن سبب هيامها بالخلاء المسكون في مثل هذا الوقت ولكن الجدّة لم ترد. سمعتها تتمتم بالتعاويذ وتدخل تحت لحافها الأسود في زاوية الخباء بجوار قربة الماء.

في الليلة التالية رابطت لها واقتفت أثرها. رأت كيف تتمسّح المسكينة

بـ «أدبني»(*) مستدير مرتفع الفوهة. قبعت تازيديرت في السفح وراقبت جدتها وهي تتوسد القبر القديم وتغفو. أدهشها أنها لم تكتشف وجود «أدبني» فوق «صلعة الدرويش» قبل أن تضبط عليه العجوز متلبسة بممارسة الطقوس. ونسيت أن أهل الصحراء لن يطيقوا مقاماً لا يجاورون فيه «أدبني». يقولون من لم يجاور قبور الأولين عاش أعمى، عاش غافلاً عن مؤامرات القدر، وعرض حياته لأكبر خطر. في الصباح ذهبت تازيديرت لاستشارة الجارة الزنجية في شأن الطقوس. قالت:

- كنت أظن أن «أدبني» ينبىء عن الغائب فقط.

ضحكت الزنجية الحكيمة وكشفت عن فم خال من الأسنان قالت:

- وهل غاب في الصحراء شيء كما غاب المطر؟

- هل ينبىء القبر عن السيول؟

- من يملك أن ينبىء عن السيول غيره؟

ثم بدأت تحضر الشاي وتحثّها على أن تمنح جسدها للرجل قبل أن يذبل ويترهل ويأكله الدود. قالت إن الله وهب جمال الجسد للمرأة لا كي تحتفظ به لنفسها ولكن كي تعطيه للرجل. وعندما لاحظت فتورها طمأنتها:

- السيل قادم. أين يمكنه أن يطير؟ هل تظنينه معشوقك وحدك؟ الصحراء أكثر شوقاً منك. أرضها أكثر لهفة. وهي تعاني من الهجر أكثر منك. اصبري. أين يمكنه أن يطير؟

بعد أيام، قالت لها العجوز:

- هل تعديني أنك ستختارين عريساً إذا جاء المطر بالسيل؟

(*) أدبني: قبر قديم يستخدمه أهل الصحراء لقراءة المستقبل وتسقط أخبار الغائبين (راجع هيرودوت «التاريخ»).

خفق قلبها. سمعت دقاته بأذنيها. تذكرت وعدها الجسيم. تذكرت المعادلة الوحشية همست:

ـ أعدك.

قالت الجدّة وهي تتنهد بعمق:

ـ كنت أحلم أن أسمع هذا الوعد قبل أن أموت.

وليس غريباً أن تموت بعد أيام لأنه لا يوجد من هو أكثر قدرة في معرفة نوايا القدر مثل عجائز الصحراء.

ـ II ـ

رق.. رق.. رق.. لق.. لق.. لق...

راق لها التقليد الأخير. وجدت أن الـ «لق لق لق» نغمة أقرب للغة الماء، أشبه بحواره الخفي مع الأحجار والأشجار. ما أشهى اللقلقة! ما أشهى الماء!

تخلصت من نعليها وسارت في المجرى، في الاتجاه المضاد للماء، بقدمين حافيتين. تتوقف وتنصت للقلقة، تقلّد الصوت الغامض، تتأمل السائل العجيب، تنحني، تحاول أن تتبيّن لوناً، أن تشتم رائحة، أن تتذوق طعماً. لا لون، لا طعم، لا رائحة. وبرغم ذلك أطفأ لهيب الشمس وأحيا الأرض المقتولة منذ ألف عام. لا يشبه شيئاً برغم إنه كل شيء. أبسط شيء برغم إنه الحياة نفسها. ما هي الحياة بدون ماء يسيل؟

تلذذت بمداعباته لقدميها. ضحكت لشقاوة ملاطفاته. حاولت أن تقرأ سرّه في لغته المبهمة. ازداد اللغز غموضاً. ازداد قلبها عشقاً وتعلقاً.

الوادي يشق النجع شطرين. تجمع الأهالي على كلا الجانبين. ازدادت الجمهرة كثافة وعلت أصواتهم بالنداءات المتبادلة. ثم انطلقت زغرودة

حامية كالرعد. تلاها بكاء أطفال وثغاء الماعز.

من الشمال هبت موجات باردة. نسيم مشبع بالمطر، شرعت له صدرها وتمتعت لأول مرة. رفعت رأسها فرأت معجزة أخرى. قرص الشمس انطفأ نهائياً. احتجبت الشمس خلف سحب كثيفة تتحرك بجلال وبطء وتسبح نحو الجنوب. ثم.. ثم.. اشتعل الأفق بأسلاك من نار. لمعت في رمشة عين وانطفأت كما ومضت. البرق. هذا هو البرق. ولكنها لم تسمع قصف الرعد. يقال إن وميض البروق مرتبط بقصف الرعد دائماً. تذكرت قولاً آخر لجدّتها: «إذا رأيت برقاً ولم تسمعي رعداً فهذا أحسن فأل». لم تسمع الرعد. سمعت منادياً يصيح:

ـ هييه ـ هييه... اخرجوا من الوادي. مستوى الماء سوف يرتفع. السيل قادم. احذروا السيل!

ضحكت. خفق قلبها بالبهجة. هل هذه هي السعادة؟ ركعت في الماء. ذاعب السائل المسحور ركبتيها، حفر تحتهما، غابتا في التراب. تسلل تحت ثوبها. دغدغ فخذها الأيمن. ثم تطاول ومدّ يده إلى الأيسر أيضاً. ضحكت وانحنت فسمعت عربدة، سباقاً، اندفاعاً. لمست الماء بشفتيها الحنونتين المتعطشتين كالأرض منذ ألف عام. تركت السائل الشقي يعبث بالشفتين ويداعبهما في قبلة طويلة.. طويلة، تحمل شوق ألف عام. ثم نزعت شفتيها وأحست بالدوار. فتحت عينيها فسقطت الدموع وامتزجت بالماء. غمرت قلبها دفقة أخرى من البهجة. وتقاطرت من مقلتيها قطرات جديدة من الدموع.

ارتفع مستوى الماء.

ازداد التيار عنفاً واندفاعاً. تعكر صفو الماء. جرّ القش والجل والروث والطين. تشبثت بالأرض فحفر تحتها ونزعها بدهاء. بدأ يلتف حولها ويضمّها إلى صدره. غمر نصفها السفلي.

أحنت رأسها وبدأت تشرب. شربت طويلاً. الماء عكر. رفعت رأسها. تقيأت الجل والطين وروث المعيز. لم ترتو، بل ازداد عطشها وحشية. اندلعت نار مجهولة وأحرقت جوفها بعطش أقسى. انحنت فوق الماء العكر وعادت تشرب بشراهة.

تقيأته مرة أخرى ممزوجاً بالروث والطين وأعواد القش.

حاول أن يصرعها ويطرحها أرضاً، فتشبثت بأعراف رتمة. استعادت توازنها ووقفت على قدميها. حفر الأرض محاولاً أن يسقطها من جديد. ضحكت. عادت تجثو على ركبتيها. قلبها يتأجج حنيناً وعطشاً.

بدأت تنزع ملابسها.

تحررت من اللحاف. التقطه من يديها وجرفه التيار. خيّل إليها أن الماء ازداد شراسة وعنفاً. مزقت ثوبها الفضفاض. مزقته من جزئه الملتف حول الرقبة وشقته إلى قطعتين كبيرتين. تخلصت من القطعة اليمنى. فتلقفها وابتلعها حالاً. تابعتها وهي تغيب في اليم الهائج. ثم أطعمته القطعة الثانية ووقفت عارية تماماً. تستعين بالرتمة بين الحين والآخر لحفظ توازنها. دمدم الرعد. سمعته بوضوح. دمدمة واعدة، مهيبة غطت على ضجة السيل.

ركعت فاحتضنها. هجم على الجسد البكر العاري، وغمره بحنانه. ألقت برأسها إلى الوراء فبلغ جيدها وأغرق جدائل شعرها. أرخت قبضتها وتخلت عن الرتمة فاحتواها وسحبها. أحسّت بنفسها خفيفة كريشة طائرة. الماء الناعم يطوق جسدها البكر بحنانه. انسابت بحرية مع التيار الهادر الذي انطلق يجرف القش والروث، يحرث الأرض البتول بعنف مارد عاشق يفرّ بمعشوقته الحسناء إلى المجهول.

طـــائـــر النـــحس الـــذهبـــي

«عابد عبد الله أربعمائة سنة ثم شغل فترة بتغريد طائر فوق شجرة في بستان وسط داره، فكان جزاؤه أن تخلّى الله عن عشقه»

فريد الدين العطّار النيسابوري
«منطق الطير»

- ١ -

ما إن حطّ على شجيرة برّية شاحبة حتى انتصبت أمام الخباء، ورأت الطفل المسكين يحدّق في ريشه الخرافي البرّاق، فقفزت كالملدوغة وألقت بنفسها على الولد، طوّقته بذراعيها، وانهمرت الدموع من مقلتيها، وناحت باكية:

ـ لا. لا. لا تنظر إليه هكذا. إنه وهم. إنه خديعة. إنه يسرق الأطفال من أمهاتهم.

ولكن الطفل استطاع أن ينزع نفسه من أحضانها بمرونة أفعى ويتابع طائره الملّون العجيب ذا الأجنحة الذهبية التي لم ير لها مثيلاً على طائر من قبل. سار نحوه مأخوذاً.

لم يتحرّك الطائر الذهبي ولم يكترث لمجيئه. انتظره حتى وقف قبالته. مدّ الطفل يده حتى كادت تلامس ريشه الذي لمع تحت شعاعات الغسق، فانسل بمهارة وابتعد خطوتين عن متناول اليد. تقدّم الطفل المأخوذ حتى كاد يقبض عليه. تملّص مرة أخرى وجرى خطوات أخرى. تقطعت أنفاس الطفل فضولاً ورغبة، وتهيأ الطائر العجيب لمطاردة طويلة.

ناحت الأم:

ـ يا ويلي! ها قد بدأت المطاردة. أما قلت لك إنه طائر النحس. يغوي الأطفال ويجرّهم إلى الصحراء. ارجع يا ولد! ارجع!.

الولد لم يرجع. انطلق خلف رسول الغواية، وانطلق الرسول الذهبي يتغنّج ويتدلل ويتملّص، وانطلق خلفه الطفل لاهث الأنفاس، مشدوها من الرغبة في الامساك به، وامتلاكه. يومها أنقذته الأم. جرت وراءهما وأمسكت به، ردّته بالقوة.

حلّ الليل وسادت الظلمات. عاد الأب فأُخبرته هلعة، ولكنه أعلن بحسم وخشونة:

ـ إذا عاد الطائر فاحبسي الولد. اربطيه بالحبل وشدّيه إلى ذاك الوتد.

الطائر لم يعد في اليوم الذي تلا، ولم يعد طوال أيام. انتهز فرصة غياب الأب في الخلاء وذهاب الأم لزيارة صديقة لها في النجع المجاور وتقدّم من ضحيته الذاهلة. ساقه مع الأصيل، وعبر به السهول الجنوبية. قطعا الروابي والأودية في مطاردة مدهشة. كان الطائر الذهبي البديع ينتظر في كبرياء حتى إذا وصل الطفل وهمّ بالقبض عليه ينسلّ برشاقة ويبتعد خطوة، أو خطوتين، أو ثلاث خطوات على الأكثر، يقف منتظراً، يتلفت يميناً ويساراً، وفي بعض المرات يسدّد نحوه نظرة غامضة من عينيه اللماعتين الصغيرتين، الماكرتين، ويفرد جناحيه البراقين في إغراء أنثوي، حتى إذا اقترب وانحنى عليه، متأكداً من أنه سيقبض عليه هذه المرّة، ينسل في خفة مدهشة ويتقدم إلى الأمام.

استمرت المطاردة.

زحفت العتمة. وفي النهاية أطبقت الظلمات على البيداء الأبدية فاختفى الطائر.

وجد نفسه ملوثاً بالعرق والبول والتعب. انهار تحت شجيرة برية وأغفى.

في الليل أيقظه عواء الذئاب. وسمع محاورات الجن في الخلاء. قرأ سورة التوحيد التي تعلمها من أمّه وراقب النجوم المنشورة في ظلام السماوات. آنسته النجوم بلغتها الخفية وحدثته عن أشياء لم يفهمها. في النهاية نعس مرة أخرى.

في الصباح، هام طويلاً في المتاهة قبل أن يجدوه في واد صغير، ملقى تحت رتمة بائسة، مدمى القدمين، متشقق الشفتين، منهكاً ومحطماً من الجري والتعب.

ـ قالت الأم في الليل بعد أن كفكفت دموعها واستطاع الوالد أن يجبرها على إنهاء بكائيتها الطويلة:

ـ أرأيت ماذ فعل بك طائر النحس؟ إنه إبليس. ألا تفهم؟

هزّته بعنف وهي تردد مأخوذة:

ـ يسرق الأطفال من أمهاتهم. إبليس الملعون، الرجيم.

أوقفها الأب بحركة صارمة، فعادت إلى النشيج.

كانوا يتحلقون حول موقد النار قبل اللجوء إلى النوم. نعس الولد وهو جالس.

ـ ٢ ـ

رزقا به بعد يأس.

طافا كل المشعوذين والسحرة والفقهاء المعروفين في واحات الصحراء إلى أن يئسا من الرحمة. لم تنفع التعاويذ ولم تجد التمائم. استجلبت أندر الأعشاب، وجاؤوا لها من أواسط القارة بالمستحضرات المأخوذة من سموم الأفاعي وأمخاخ الوحوش.

عندما أشرفا على سن اليأس، اهتديا إلى العرّاف المجوسي المخيف الذي اشتهر بالتعامل مع الفريق الوثني من معشر الجن في واحة «آدرار».

ولو لم يقصداه من سهول الحمادة الحمراء البعيدة لما تنازل وقام باستقبالهما. العرّاف المجوسي توقف عن استقبال الناس واعتزل منذ زمن بعيد بعد سلسلة متواصلة من المعارك والملاحقات التي نظمها الدراويش المستنصرون بفرق الجن المؤمنة. هذا الفريق استولى على آخر معاقل الحكمة في الصحراء مدّعياً أنه يتسلح بالتعاويذ والتمائم المستوحاة من نصوص القرآن. وأعلن الفريق أن عهد الأوثان قد زال وحرفته هي رجس من عمل الشيطان، فعانى العرّاف المجوسي من الاضطهاد واضطر إلى أن يتوقف عن ممارسة قراءاته البصيرة في الظلمات والمجهول. كما تجنّبه الناس خوفاً من بطش الفرق الدخيلة، فوجد كبير العرافين الوثنيين نفسه في عزلة وحصار. آوى إلى كهف في جبل «آدرار»، وعاش معتصماً مع أنصاره من كفرة الجن العتاة، يتبارون في فك الطلاسم ويتنابذون ـ أحياناً ـ بالألقاب. فكثيراً ما سمع الناس العراف الكبير مقهقهاً في كهفه استجابة لنكات خلصائه الذين دأبوا على مؤانسته والترفيه عن وحدته.

استقبلهما في مدخل الكهف الموحش، المحفور في قمة الجبل، وخاطبهما بالهوسا(*)، وعندما أدرك أنهما لا يفهمان تنازل وتكلم معهما بـ «تماهق»(**). أما بلغة القرآن فلم ينطق حرفاً فعرفا أنه يفعل ذلك نكاية بفرقة الدراويش العيساوية التي أطاحت بمجده في الواحة. كانت بشرته محروقة برغم اعتزاله في ظلمة الكهف، يتدثر باللباس الأسود من رأسه إلى قدميه، فيبدو في العتمة مثل جنّي من فريق الكفّار.

أهل الواحة أصبحوا يرتعدون من أتباعه، وقالوا إن الجن أصبح عدوانياً

(*) الهوسا: لغة قبائل الهوسا القاطنة شمال نيجيريا.
(**) تماهق: لغة الطوارق.

في سلوكه منذ أن دخل دراويش الطرق الصوفية وانقسم معشر الجن إلى فريقين. فريق اتبع الهدى وآمن بالدراويش، وفريق بقي على حاله كافراً، وثنياً، تابعاً للعرّاف المجوسي المخيف.

وربما هذه الروايات هي التي أثرت في المرأة وجعلتها ترتجف بمجرد رؤية هذا الوثن المبعوث من وطن الكهوف والظلمات.

ذبح دجاجة بيضاء تحت قدميها الحافيتين ولوث جسمها بالدم. تحسس ردفيها المدّورين وعبث بنهديها النافرين وهو يتمتم بتمائم الأوثان القديمة ويحرث جسدها بأصابعه الخشنة المخضبة بدم الدجاجة الناصعة.

تابع الزوج هذه الطقوس ذاهلاً. العرّاف حذّره من النطق بآيات القرآن أو أحاديث الأنبياء قبل أن يبدأ في قراءاته الوثنية بلغة «الهوسا» والجن. قال:

ـ أعواني لا يحبون ذلك. آيات القرآن وسيرة الرسل والأنبياء شيء محرّم في داري!

ثم نثر مسحوقاً كالبخور في موقد النار. تصاعدت سحب بخار كريه الرائحة. شعرت المرأة بالدوار، وأحس زوجها بالغثيان. ثم عاد المجوسي المحروق يتحسس جسدها ويلوثها ببقايا الدم. في النهاية قال:

ـ انتهينا من المرحلة الأولى. غداً ستذهبان معي وأريكما الضريح الذي يتوجب عليكما أن تناما في حضرته ثلاث ليالٍ متوالية.

تمتم بالتعاويذ المبهمة، واختتم كلامه:

ـ إنه أقدم قبر في الصحراء. إنه أقدم قبر في الدنيا.. ضريح الأضرحة وقبلة الكون.. قبلة قبل أن يعرف الناس قبلة الدراويش وضاربي الدفوف!

الضريح كوم من الأحجار السوداء يتشبّث بسفح الجبل، أسفل الكهف الكئيب.

الليلة الأولى مرت بهدوء، وكذلك الثانية، وفي الثالثة رأت حلمها المخجل الذي منعها الحياء من أن تقصّه على مسامع الزوج. رأت نفسها تزفّ إلى ملك الجن. دخل عليها في الصباح على غير العادة، وأذاقها الويل الذي ما زالت تتمايل من النشوة كلما تذكرته. عاشرها الملك المخيف كما لم يعاشر إنس ذكر إنسية أنثى، فعبرا الوادي الواسع زاحفين على الأحجار من دون أن تتخلص من جسده الناري المحموم.

أخفت السرّ العظيم عن زوجها من دون أن تعلم أنه أخفى عنها سرّه أيضاً، فقد سمعها في ليلتهما الأخيرة تلك تئن وتتوجع وتتلوّى من فرط المتعة والألم. لم يستطع أي منهما أن يرفع إلى وجه الآخر نظرته على مدى شهور كاملة. منحهما العرّاف تعويذة وثنية لولي العهد المنتظر، ورفض أن يتقاضى أتعاباً على طقوسه.

لم تمر أسابيع أخرى حتى رآها تتوحم وتلتهم الطين الأبيض.

وما أن ولد حتى سارعت تعلق التعويذة في رقبته بعد أن حصنتها بغلاف الجلد وزينته بألوان الفسيفساء السحرية. وعندما ضاع الحجاب النفيس، منذ عام مضى، في إحدى رحلاتهم عبر الصحراء، انزعجت المرأة ولكن الزوج الأحمق طمأنها أنه سيتدبر تعويذة من فقيه بالمنتجع المجاور، ولم يكن يعلم ان تعاويذ الفقهاء لا تعوّض تمائم العرّاف الوثني. وما أن جاء طائر النحس الذهبي حتى تذكرت الأم المسكينة تعويذتها الضائعة.

أحسّت بالشقاء والشؤم.

- ٣ -

الطائر الذهبي هو رسول إبليس لاستدراج الصغار واختلاسهم من أمهاتهم، وتقول العجائز في الصحراء إنه يظهر نادراً، وإذا ظهر فإن ضحايا كثيرة سوف تتساقط لأن ظهوره مرتبط بالجفاف والسنوات العجاف. وتؤكد

العجائز الحكيمات في صحاري تمبكتو أن سرّ الشؤم يكمن في ريشه الذهبي. فحيثما لمع بريق الذهب الشيطاني حلّ النحس وسال الدم وسعى الشيطان الرجيم.

واليوم عاد الطائر للظهور، واستدرج الولد المسكين في غفلة من الأم التي ذهبت لتستدين قربة ماء من النجع المجاور.

في الأيام التي أعقبت ظهوره الأول اتخذت التحوّطات. نفذت أمر الزوج وربطت الولد إلى وتد بحبال الليف الخشنة، ولا تخرج إلى المرعى أو لزيارة الجارات في السهول المجاورة إلّا بعد أن تتأكد من إحكام الوثاق حول رجل الطفل الدامية. كان يبكي في غيابها، ويحاول الإفلات من الوثاق القاسي، فحفر الحبل الخشن طوقاً دامياً حول رجله اليافعة.

كانت تبكي، في فراشها، في الليل، خفية، شفقة عليه. وتعود في الصباح لتحكم الحبل خوفاً عليه.

ولكن الزمان آفة الذاكرة ووسواس الفناء والنسيان. مرت أسابيع فاطمأنت واسترخت من استنفارها فذهبت لاستدانة الماء وتركت الولد طليقاً في البيت. أعقبها الطائر المشؤوم واختطف الطفل.

تعقبه في السهول والأودية. ارتقى المرتفعات ونزل الراوبي. استمرت المطاردة منذ الأصيل وعند حلول القيلولة، انهار الطفل وغرس وجهه في التراب لاهثاً. كانت الشمس القاسية قد استوت على العرش، وحررت أشعتها من مخبئها فحرقت الولد بالنار.

قدماه الغضتان مخضبتان بالدماء وشفتاه يابستان، وحلقه جفّ من آخر قطرة لعاب.

لم يختف الطائر حتى ذلك الحين. رأى انتفاضات الطفل وارتعاشاته، فحطّ على عشبة برية باهتة الأغصان وشرع يفرد جناحيه الساحرين

ويصقلهما بمنقاره العجيب.

استعاد وعيه قبل الغسق، واصل المطاردة زحفاً على يديه وركبتيه فوق الأحجار الشرسة. لم يلتفت إلى أطرافه الدّامية، ولم يحس بقطع اللحم التي تنهشها الأحجار من جسمه وتنثرها مدماة على الصخور.

وجـدوا الجسد المتعفن في اليـوم التالي تحت شجـرة سدر وحيـدة، موحشة.

- ٤ -

بكته الأيام والليالي، نعته للصحراء والفضاء والأشجـار البريـة وطائـر الغرنوق المقدّس، ولم تكف عن النواح حتى أخذها الرجل في رحلة إلى كهف العرّاف المجوسي المخيف طمعاً في الحصول على ولد آخر. هناك قالوا لها إن العرّاف الفظيع مات، وفاخروا بأن «آدرار» تطهرت من نجس الأوثان إلى الأبد، ولكنها ذهبت إلى سفح الجبل حيث ينتصب أقدم قبر في الدنيا وناحت هناك وهي تردد من الفجيعة:

ـ لماذا أعطيتني إياه إذا كنت تريد أن تأخذه مني؟ لماذا؟

رد على سؤالهـا الشقي دراويش الفرقـة العيساويـة وهم يتمـايلون من الوجد، يقرعون الدفوف، ويرفعون أصواتهم بالمديح الصوفي عن العشق الإلهي، أسفل الجبل:

ـ لا يأخذ إلّا ممن أحبّ، ولا يهب سوى من هوى.

السّيـــــل

«يوبتر بنفسه ضرب بمثلث أسنانه الأرض

فانشقت وفتحت الطريق للمياه

انطلقت السيول تفيض في الحقول

تجرف البذور والشجر والناس والحيوانات

والبيوت وما بداخل البيوت من أشياء ومقدسات»

اوفيديوس

كتاب «التحوّلات»

- ١ -

هل كان يمكن أن يتغيّر شيء لو لم تظهر تيلي(*)؟

ليس غريباً في الصحراء ألّا يرى رجل وجه امرأة خاصّة بالنسبة ليتيم مثله. لم ير أمه ولم يعرف أباه. ربّاه عمّه حتى إذا لبّى نداء الرسل وانضمّ إلى قافلة المجاهدين المتجهين صوب الشمال لمقابلة الغزاة سلّمه، مع مقاليد أخرى، إلى الزنجي العجوز الذي سباه عمه في إحدى الغزوات إلى ما وراء النهر(**)؟

يذكر ذلك العجوز الطيب القصير القامة. فمه خال من الأسنان. ولحيته وشعر رأسه الأجعد القصير يعلوهما الشيب. وبرغم فمه الخالي من الأسنان إلا أن ضحكته ساحرة. يحسّ بالسعادة كلّما تذكر ضحكات الشيخ الزنجي، وهو يستلقي إلى الوراء، ساخراً من أخطائه في أثناء تعلّم الرماية وصيد الأرانب البرية والغزلان والطيور الجارحة.

بعد شهور، جاء الرّحل بخبر مصرع العم. وبعد أقل من عام التف ثعبان حول عنق الزنجي الطيّب وخنقه عندما كان يقضي ليلته تحت سدرة وحيدة

(*) تيلي: الظلّ (لغة الطوارق).

(**) ما وراء النهر: المقصود نهر النيجر.

في فيافي الحمادة الحمراء. وبرغم أن أهل الصحراء يعرفون أن الموت خنقاً بالثعابين هو لعنة معروفة تلاحق سلالة الزنجي الوديع، إذ لقي كل أسلافه المصير نفسه في أدغال ما وراء النهر، إلا أن عجائز النحس والظلمات اتهمنه هو بالنحس وتحججن متسائلات: «كيف يموت الزنجي مخنوقاً بذلك الثعبان الفظيع الذي لم تعرفه الصحراء منذ أن أصبحت صحراء إن لم يكن الولد منحوساً؟».

الادعاء أجبر الافاضل وفاعلي الخير على التراجع عن تسلّم مقاليد تربيته فتسلّم القطيع وتركه يرتع في مراعي الحمادة ويتنقل خلفه بين الأودية والشعَب والسهول، فلم يعرف أهو الذي يرعى القطيع أم أن القطيع هو الذي يرعاه ويتولى تربيته. وكان العرّاف الأعمى الرحّالة أول من لفت انتباهه إلى هذا المصير. قرأ على رأسه تمائم القدماء وعلّق في رقبته تميمة وثنيّة وقال له وهو يربت على شعر رأسه:

ـ دع أمرك للقطيع دائماً فهو أرحم من البشر. رحم الله أباك. سلّم أمرك للأنعام ولا تخف فهي تعرف الصحراء أكثر منك ومني ومن عجائز الظلمات!

ثم تركه وركب ناقته العجفاء وانطلق عبر المدى في رحلته لملاقاة قدره.

عمل بنصيحة العرّاف الحكيم.

لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يعانيه أهل الصحراء لو لم يهبهم الله العرّافين الحكماء!

ـ ٢ ـ

التميمة حمته من كيد الخلق، والانقياد لزمام الأغنام قاده إلى الأمان ووهبه الحياة.

و.. لكن لا التميمة المجوسية، ولا حكمة الأنعام استطاعتا أن تحمياه من الشرك! ظهرت له تيلي فجأة، في أصيل أحد أيام الربيع، في قعر واد ضيّق بفيافي الحمادة الجنوبية. التحم القطيعان، وارتفع ثغاء الجديان وتناطح التيوس بشراسة تنافساً على الإناث.

توقفا متقابلين وتبادلا نظرة دهشة طويلة. شذى طيب، غامض، مثل شذى زهور الرتم، افقده توازنه وجعله يحس بالدوار. الرتم لم يزهر بعد في ذلك العام فأي شذى خرافي هذا؟

لم يكن المسكين يعلم أن شذى الأنثى بداية الشرك.

ولم تكن تيلي تعلم أيضاً أن رائحة التيس الحادة هي نفسها رائحة الراعي الفحل في الصحراء.

مرّت لحظات قبل أن يتشابكا.

نظرت إليه. نظر إليها. حدّقت فيه. حدّق فيها. تصاعدت دهشتهما وشرع ينزع ملابسه دون أن يتوقف عن ملاحقة دهشتها بنظراته. بقي عارياً إلاّ من اللثام.

تصاعدت رائحة التيوس وعبق الوادي بزهور الرتم.

اقترب فلم تجفل، ولم تتراجع. عيناها كبيرتان، سوداوان، نهمتان، شرستان. شفتاها مكتنزتان، ترتجفان. الردفان ممتلئان.

حل الحزام، فتحرر النهدان النافران. اشتدت الرجفة. في يديه الرجفة، وفي يديها. حرارتهما ارتفعت. الآن محمومان.

طرحها فوق آثار السحالي والأفاعي والخنافس الليلية في قعر الوادي البكر. تقاربت رؤوس الماعز وتهامست. توقفت التيوس عن التنافس والتناطح. ازدادت السماء صفاء، والصحراء الأبدية الممتدة صمتاً ووحشة وبراءة.

شهقت وشقت السكون الأسطوري بصرخة موجعة. ترددت في المتاهة الإلهية حتى استجابت لها الذئاب البعيدة بعواء مكلوم. ثم استجاب لها هو نفسه من دون وعي بالنداء والغمغمات المكتومة.

ردد في غيبوبة:

ـ اصرخي. اصرخي. اصرخي إلى الأبد.

ثم ظل يصرخ معها، يردد أنّاتها وتوجعاتها.

صرخات الألم والدهشة والبكارة واللذة الأنثوية المتعطشة للالتحام بالرجل، وحشرجة الفحل التوّاق إلى لقاء الأنثى التي لم يرها أبداً في حياته. لم يرها إلا في قدره المكتوب في اللوح المحفوظ عند سقوطه من الرحم إلى دنيا الشقاء. زحف جسداهما المتشابكان وقطعا الوادي العذري العريض. هرسا، في طريقهما المقدّس النبات الربيعي البكر، الندي، وسحقا الخنافس والنمل، وفرّت السحليات وأفسحت لهما الطريق. وراقبتهما الأنعام وتهامست بشأنهما بلغة مبهمة كأنها تبارك اللقاء.

الصحراء المهيبة أيضاً ركعت لتلك اللحظة الجليلة.

استمرّ الصراخ.

امتزج عرقهما ودمهما وماء الحياة في كليهما.

وعندما انتهيا ورقدا منهكين، مهزومين، مطحونين، قالت:

ـ أبي لن يرضى بغير مال كثير مهراً لي!

لم يدر، وقتها، أي لعنة يمكن أن تخفيها امرأة في هذا التصريح الصغير. كان ينصت لعواء الذئاب.

الذئاب فتكت في أثناء غيبتهما بنصف القطيع.

هذه هي اللعنة الأولى التي نتجت عن أول لقاء بين آدم وحواء.

- ٣ -

بعدها بدأت الرحلة الحقيقية في حياة يمون(*).

ولم يكن المسكين يعتقد أن كل ما عاناه من شقاء طوال السنوات القاسية التي تولّى فيها القطيع مقاليد مصيره هو مجرد نزهة في سهل أخضر بالمقارنة مع ما سيراه بعد أن ذاق طعم المرأة.

ولم يخطر بباله البدوي أن يقدر هذا المخلوق الوديع أن يتخذ من الشيطان حليفاً يسخره للعب بالقدر نفسه.

لم يرها بعد ذلك.

رحل أهلها لقضاء الصيف في الواحات الجنوبية، وبعثت إليه بمكتوب يقول: «لا تنس عهدنا. أبي لن يرضي بغير المال الكثير مهراً. أنا في انتظارك إلى الأبد».

حلم بجسدها المتوجع الريان، ورأى مقلتيها يغزوهما البياض وتدوران في فراغ المحجرين الغائبين. كان غيابها المنتشي أكثر ما يثيره في ذكريات ذلك الالتحام.

فـ. . . قرر أن يتولّى الأمر.

قرر أن يظفر بالثروة.

ولما كان أمله في العثور على كنزٍ ضئيلاً فليس أمامه إلا سبيل وحيد: أن يضاعف القطيع كي يستولي على المال المطلوب.

هاجر إلى أقصى الصحاري الشمالية بحثاً عن الكلأ الوفير والمراعي الخضراء ولكن القدر، ألعوبة إبليس، سخر منه وشاء أن يتراجع المطر عن

(*) يمون: الجليّ.

الصحراء منذ ذلك العام بالضبط الذي تلا الوعد المشؤوم، واستمر لسبع سنوات متتالية عرفت في تاريخ الصحراء الكبرى فيما بعد بـ «أعوام الزمّة»(*). غضب الله وأشاح بوجهه عن الصحراء.

انقشع السحاب وهاجر المطر.

عزفت السماء عن معاشرة الأرض فحلّ «الجوع الكبير» الذي أرّخ به أهل الصحراء تلك الحقبة من تاريخ حياتهم الأليمة.

لم يعلم حتى الحكماء أن سرّ اللعنة كامن في لقاء آدم وحواء في قعر الوادي البكر.

- ٤ -

حمل طيفها معه في سفره، وحلم بها في الليالي الشتوية الطويلة الباردة.

بياض مقلتيها، وهي تتلوّى تحت جسده، لم يغب عنه لحظة واحدة. وكان يرى جسدها، في أحلامه طافياً فوق بحيرة كبيرة من الماء. وكانت البحيرة تختفي وتتحوّل إلى سراب كلما اقترب منها. وقد ظلّت هذه الرؤيا تراوده ليليّاً. وفي بعض الليالي مرتين وثلاث مرات في الليلة الواحدة.

في السنة الأولى لهجرته لم يتوقف عن مخاطبتها بالمكاتيب والوصايا.

يمر على النجوع في البادية ويبحث عن الفقهاء. يرشوهم بقطع الطرونة(**) ويجعلهم يكتبون عدة خطابات تحمل تواريخ مختلفة ولكن

(*) أعوام الزمّة: (أعوام الازمة) وهي سنوات الجفاف التي عانتها الصحراء الكبرى في نهايات الأربعينات من هذا القرن.

(**) الطرونة: نوع من الأملاح يستعمل في تطعيم تبغ المضغة، ويستخرج من بحيرات الصحراء، جنوب ليبيا.

بالمضمون نفسه. وعد وراء وعد في الالتزام بالعهد والسعي وراء المطر والمهر. يحشو الخطابات في جيبه كالأحجبة ويهرع بها إلى الرعاة وعابري السبيل أو تجار القوافل المتجهين صوب واحات فزان. يرشوهم بالطرونة أيضاً ويستحلفهم بالأولياء كي يوصلوا مكتوبه. وكان يتلقى ردوداً متقطعة، متباعدة، في السنة الأولى. ردود مواساة وتشجيع والتزام بالعهد أيضاً مع تكرار التميمة القديمة نفسها التي أصبح وقعها قاسياً في ذلك الخلاء العاري: «لا تنس. أبي لن يرضى بغير المال الكثير مهراً. في انتظارك إلى الأبد». ولم تعدّل في الصيغة مرة واحدة.

وكلما ابتعد المطر وجافت السماء قرينتها الأرض، تباعدت خطاباتها حتى انقطعت نهائياً في السنة الخامسة.

في ذلك العام نفسه هلك قطيعه ولم يبق منه سوى عشر معيز عجفاء برز منها العظم تحت الجلد الغث.

تمسّح بقبور ما قبل التاريخ وطلب النجاة من أضرحة الأولياء المنتشرة في الصحراء فنزل عليه ضيف غامض يرتدي أسمال الدراويش وأشار عليه بالتوجه صوب الغرب فهناك سقطت الأمطار أخيراً.

بلغ أطراف الحمادة الغربية بعد أن هلكت سبع معزات وتيس فاكتشف أن الدرويش الشريد لم يكن إلا شيطاناً في لباس إنس. وجد هناك مقابر من الأنعام الميتة. أودية كاملة مغطاة بجثث الجمال والخراف والماعز قضى عليها العطش والجفاف فيئس تماماً.

نام على مشارف وادي الموت فرأى الحلم نفسه. عيناها الكبيرتان، السودوان. شعرها معقود حول رأسها في ضفائر كبيرة. رأسها يسبح فوق البحيرة الكبيرة، وجسدها الخرافي الجموح كمهرة غير مدربة، مغمور تحت الماء.

اقترب، فابتعدت. جرى فامتد بينهما مدى من السراب.

وعندما صحا وجد شبحاً يقف فوق رأسه.

- ٥ -

كان العرّاف الزنجي عائداً من الشمال. استطاع أن يفلت من أسر الأعداء بواسطة تعاويذ المجوس الشيطانية التي دأب سحرة «كانو» على استخدامها منذ قديم الزمان. وما أن أخبره البدوي بقصته حتى ضرب كفاً بكف وقال وهو يهجم ويقضم من قطعة الطرونة المتلألئة تحت شعاعات الشمس:

ـ ما أغباكم أهل الصحراء وما أجهل فقهاءكم! كيف يستقيم أمر كهذا دون قرابين؟

قال البدوي بخيبة:

ـ لم يبق من القطيع سوى معزاة وتيس واحد.

قال العراف:

ـ اذبح التيس.

نحر التيس. لوّثه الزنجي بدمه، وقرأ تعاويذه الوثنية بلغة الهوسا، ثم أشعل النار وأكل لحم التيس الغث مشوياً.

- ٦ -

في الفجر، قبل أن يتنفس الصبح، زمجر الوادي بسيل لم تشهده الصحراء الكبرى منذ قرون. ويبدو أن الأمطار كانت قد سقطت في أعالي الجبال، عند أطراف الحمادة الشمالية، فبلغت وادي الموت مع الفجر البكر، الأوّل.

العرّاف كان قد اختفى.

أما البدوي فلم يدرك ما حدث. كان يعيش حلمه وهو يلاحق جسد تيلي الراقد في بحيرة السراب والمتاهة، فلم يصدّق الهدير الجارف. جرفه السيل مع معزاته الوحيدة الباقية، وظل طويلاً يحاول الإمساك بالشجيرات في قعر الوادي من دون أن يمهله الماء العظيم. شرب الطين والخنافس السوداء واحتضن جثث الحيوانات الميتة قبل أن يشاهد لآخر مرة طيفها الطافي فوق الماء وهو يبتعد ويختفي إلى الأبد.

(١٩٨٩)

النبـوءة

- ١ -

قررت تافّاوت أن تقتص من العرافة الزنجية وتذبحها بالمدية التباويّة الفظيعة كجزاء على زيف النبوءة.

صمّمت على تنفيذ خطتها في صباح يبشّر بالقيظ في أحد أيام نهاية الربيع في منتجعهم بالحمادة الحمراء قبيل نزوحهم إلى الأودية السفلية الغربية حيث تعودوا أن يقضوا موسم الحرّ كل عام على البئر في وادي «الجعيفري».

قبل أن تنطلق إلى خباء صديقتها، ساعدت عمّتها العجوز في لضم الخيط في ثقب الإبرة، وابتسمت بخبث وهي تشاهد كيف تجاهد العجوز المهددة بالعمى كي ترتق الطرحة الفاخرة الزرقاء التي يجلبها تجار القوافل من «كانو» لبيعها في الصحراء بأسعار خيالية. العجوز تعاند الشيخوخة وترفض التنازل عن رتق الثياب لأن ذلك اعتراف بضعف البصر وبالعجز. بل إن كبرياءها لم يسمح لها بقبول مساعدتها في لضم الإبرة إلا بعد جهاد طويل ومحاولات فاشلة تستغرق نصف نهار كي تنجح المسكينة في لضم الخيط مرة واحدة. وهي تعرف أكثر من غيرها أن العمة لم تتنازل وتقبل مساعداتها إلا اتقاءً للشائعات وسخرية الجارات.

أهل الصحراء لا يخافون إلاّ الشائعات.

اجتازت طابوراً طويلاً من المضارب السوداء وانعطفت شمالاً حتى تجتاز خيمة رمادية جديدة منسوجة من وبر المهاري نُصبت للعرس، فتجمّع الشباب والعذارى، يقرعون الطبول، ويعزفون على «امزاد» منذ الصباح. الخيمة نصبت في السهل الكبير، على مرتفع يطل على معسكر آخر من المضارب ينتشر على الضفة الأخرى من الوادي الواسع.

بيت صديقتها يقع في المنتجع الثاني وراء الوادي.

سرحت الشمس القاسية لتستوي على عرشها في قلب السماء، وجردت سياط النار لصهر الكائنات.

القيظ مبكر هذا العام.

استقبلتها «تاناد» في مدخل الخباء، وقالت وهي تتلهّى بإشعال النار في الحطب كي تخفي قلقها:

ـ نار السماء ستضطرنا للنزول إلى «الجعيفري» مبكراً هذا العام. الرعاة يتنبأون بضحايا في قطعان المواشي. ربنا يسترا!

ولكن تافاوت صدمتها بقسوة:

ـ دعينا الآن من نار السماء. لدينا نارنا. هل حصلت على المدية أم لا؟

قالت تاناد بعد تردد:

ـ هل فكرت في الأمر جيداً؟ أنا لا أريدك أن ترتكبي فعلاً تندمين عليه.

غضبت تافاوت:

ـ هل أنا طفلة؟ أنا لا أتراجع عن قراراتي، وأنت تعرفين.

تنهدت صديقتها بيأس، وطاف الحزن في عينيها. انهارت على الأرض وأدنت رأسها من كوم الحطب الغارق في سحب الدخان، وبدأت تنفخ النار. ما زالت تحاول أن تهرب من المواجهة.

تافاوت لم ترحمها. عاودت السؤال:

ـ هل جئتني بالأمانة أم لا؟

لم تجب تاناد. انبثقت الشعلة من كوم الحطب، فزحفت إلى زاوية الخباء صامتة. عبثت في صندوق خشبي مطرز الحواشي بالجلد ومطعم بحبات خرز متعددة الألوان، وأخرجت منه مدية مغمورة في غمد جلدي بديع، حواشيه مطرزة أيضاً بالخرز، وتتدلى من أطرافه سيور من جلود الثعابين.

قدمت الهدية النفيسة إلى صديقتها صامتة، فدسّتها تافاوت في جيب ثوبها الأسود الفضفاض. لم تعلّق بكلمة. ظلت تاناد واقفة فوق رأسها. قالت:

ـ ألا تريدين أن تتفحصيها؟

ـ وما حاجتي إلى ذلك؟

ـ احترسي. هناك حيلة يجدر بك أن تتنبّهي لها.

رفعت تافاوت رأسها مستفهمة، فأضافت:

ـ أريني المدية.

أخرجت السلاح من جيبها، وقدمته لصديقتها من دون أن تتفحصه. لاحظت تاناد أنها تتجنب إمعان النظر في المدية. سحبت المقبض المغلف بالجلد المزين بالرسوم، المقطوع بصليب عند منتصفه، فرأت تافاوت الشفرة الميتة المعتمة التي لا يبدو أنها تصلح حتى لقطع البصل، عكس ما توقعت تماماً. لاحظت التمائم والتعاويذ والآيات المحفورة على جانبي النصل، فتيقنت أنها المدية المطلوبة. السحرة وحدهم يمكن أن يستعملوا سلاحاً شيطانياً كهذا.

تكلمت «تـاناد» وهي تخفي الشفـرة المعتمة في الغمـد وتسحبها إلى الناحية الأخـرى. فينزلق الـطرف العلوي، حيث ينتصب الصليب، إلى أسفل، ليحتل الطرف المعاكس، فينقلب عـاليها سـافلها، ويبـرز الجزء العلوي بطرف مدبب. إنها سلاح ذو حدّين. العرّافون وحدهم يستطيعون أن يصنعوا سلاحاً ذا حدّين.

علّقت تاناد وهي ما تزال واقفة فوق رأسها:

ـ هذا للاحتياط. إذا استولى العدو على المقبض وأراد أن يرد الطعنة إلى الطرف المهاجم فاسحبي مقبض النحاس نحوك، إلى أسفل، فيبرز الحد العلوي من السلاح.

ضحكت تافاوت بعصبية ثم زمّت شفتيها ولزمت الصمت.

تأملتها صديقتها بنظرة طويلة وهي ترد لها المدية وتتحوّل إلى المدخل لإعداد الشاي.

ـ ٢ ـ

عرس تافـاوت يستمر منـذ أيام. عقب عـودة «أبدان» من بـرّ الحبش مباشرة. والدخلة غداً، الخميس. وهذا ما جعل تافاوت تستعجل في تنفيذ خطتها. فلم يبق بينها وبين العار إلا ليلة واحـدة. خطوة واحـدة. وكلما فكرت في هذا المصير الشقي، ازدادت تصميماً على تنفيذ خطتها في ذبح العرّافة التباوية المزيفة بالمدية التباوية الفظيعة.

تيتّمت تافاوت منذ الطفولة المبكرة. مات أبواها متأثرين بوباء فظيع قبل أن تبلغ ثلاث سنوات، وتصـرّ دائماً على أنهـا تذكـر وجه أمّهـا المغطى بالدمامل والقروح برغم أن عمتها تطعن في قدرة ذاكرتها على تذكّر الحادثة في عمرها ذاك وتنفي تواجدها مع أمها عند انتشار الوباء. إذ بعثوا بها مع

الخادم الزنجي إلى عمتها التي كانت تقيم بواحات فزان فأنقذت من الوباء الـذي تنقل في الصحـراء وحصـد الأرواح بين الـرحـل في ذلـك العـام المشؤوم.

ربتها العمة، وكبرت في كوخ الجريد بالواحات الجنوبية حيث كان عمّها يقيم أيضاً. توفي زوج العمة ولم ترزق منه بأولاد، فرافقت أخاها، وأقامت بالواحات بانتظار أن ترحمهم السماء وتشفق على حالهم وتغمر الصحراء بالأمطار. في تلك السنوات ساد الجفاف، وعمّ القحط والجوع، ولم يبق هائم في البراري إلاّ مجموعات معاندة متفرقة من قبائل مختلفة لم تشأ أن تستسلم لقضاء الله فبعث لها بالوباء بعد الجفاف ليحصد ما تبقى من هؤلاء المعاندين. وكان أبواها من بين الذين تحملوا العطش والجوع وعاندوا إلى أن قضى عليهم ذلك الوباء المجهول الذي جاء به تجار القوافل من أواسط القارّة.

شبّت بين أحراش النخيل، وكبرت على روابي الرمـل، وعرفت أنهـا ستصبح زوجة لـ «أبدان» في يوم من الأيام. وكأنّ هذا قدر من الله مكتوب قبل أن يولدا، هي وأبدان، ابن عمّها الكتوم، الغامض الذي يكبـر أخاه التوأم «أمود» بعشيّة واحدة من نهار قضى فيه الإنهاك على أمهما المسكينة. وكانت تضحك منهما عندما يتشاجران. يتبادلان التهم ويلقي كـل منهما على الآخر مسؤولية القضاء على الأم. فيقول أبدان الأكبر: «وجهك نحس في نحس. أمّي لم تتحمّل خلقتك فأسلمت الروح بمجرد أن طلعت إلى الدنيا بوجهك القبيح!». يقذفه أمود بالطين، ويصيح غاضباً: «لقد سبقتني في النحس. أنت أول من طلع فنحست أمك ونحست الدنيا. الصحراء عـانت من الوبـاء والجفاف خمسـة أعوام. كـل الناس تعـرف أنك أنت المنحوس الأول!». يشتبكان بـالأيدي ويعفـران وجهيهما بـالتراب وطين الجدول وهي تتفرج ضاحكة. حتى إذا تعبا هرعا نحوها ونهراها أو ألقيا بقبضات التراب في وجهها.

ولكنها منذ الأزل كانت تعرف أنها خلقت لترتبط بـ «أبدان». وهو أمر تقرر في بطن أمّها. قرره الكبار، واختاروا لها أبدان بالذات لأنه الأكبر.. أكبر بعشية من شقيقه أمود. ولم تفكر في الاعتراض أو التمرد ودشنتها عمّتها وكوكبة من النسوة بالطرحة الزرقاء علامة بلوغ سن الرشد في حفل نهاري بهيج، ظلّت مخلصة لقدرها، ولم تفكر أنها يمكن أن تتزوج رجلاً غير أبدان. وفجأة تحطم هذا اليقين.

أخبرتها الصبايا بالعار الذي اقترفه أبدان في أمسية الطرب.

حدث ذلك قبل انتشار خبر الرحمة التي عمت الصحراء وهطول سيول الأمطار على الحمادة.

تهيأوا للرحيل وقضاء الربيع في سهول الشمال الواعدة بالكلأ والترفاس.

نسي الناس المطر، وفقدوا الأمل في السيول بعد لعنة الجفاف والوباء التي عانتها الصحراء على مدى سنين طويلة. ولهذا لم يخف الناس ابتهاجهم بخبر الرحمة. وعبروا عن فرحهم بالأعراس وأمسيات الطرب.

في إحدى هذه الأمسيات ارتكب أبدان العار.

جاء إلى الميعاد برفقة أحد الفلاحين مخموراً، وحجل راقصاً بلا حياء، وأطلق ـ ويا للفضيحة ـ رائحة مسموعة.

تمنّت العذارى، المتحلقات في دائرة في العراء، أن تبتلعهن الأرض قبل أن يسمعن فتى نبيلاً يشرب اللاقبي ويطلق الرائحة المسموعة في حفل خصص لحمد السماء على رأفتها بالصحراء العطشى.

لم تحضر تافاوت حفل ذلك المساء. مرضت العمة بالحمّى الموسمية فاضطرت إلى البقاء في البيت للعناية بها. أخبرتها الصبايا أن أبدان كان عارفاً بما يفعل. فبعد أن فعل فعلته، قهقه بجنون وقال بلا حياء: «هذه هديتي لفتيات القبيلة المتكبرات المغرورات. ليس فيكن صبية واحدة

تستحق أن تنال هذه الصفة النبيلة. هذه هديتي أيتها المتعجرفات!». أبعده الشباب فهاجمهم. قيدوه بالحبال على بغله الفلاح وساقوه إلى الحقل كي يحمموه حتى يفيق. في السانية حاول بعض الغيورين النبلاء أن يغرقوه حتى الموت انتقاماً لشرف العذارى وإنقاذاً لسمعتك من عاره ورذالته. لم ينقذه من أيديهم إلاّ جمع الفلاحين.

يومها تمردت على القدر وكفرت بالمكتوب. شككت في مستقبلهما. بل وقررت أن تتحرر من الميثاق الذي كبلوها به قبل أن تولد وقبل أن تذوق نعمة الوجود وتتمتع بالعقل.

حدث ذلك بعد انتهاء طقوس التدشين. الطرحة الزرقاء تتوج رأسها الآن. الطرحة تجيز لها بأن تتصرف كفتاة كاملة العقل، مستقلة الرأي. لبست طرحتها المهيبة الفواحة بالصبغة، وتوجهت إلى كوخ الساحرة التباوية المقام خلف تلة رملية عند أطراف غابة النخيل.

فزعت العجوز الزنجية وتفحصتها طويلاً بنظرة كئيبة تخبىء فزعاً. ثم قرأت تعاويذها ونثرت البخور على الجمر ودعتها للجلوس. لم تتوقف عن محاصرتها بنظرة الفضول طوال الزيارة. أعلنت تافاوت عن هدف زيارتها وطلبت أن تقرأ لها خبايا المجهول. استمرت تراقبها بنظراتها الكابية العميقة التي تعودت أن تخترق الرؤوس وتقرأ ما تخبئه النفوس. ثم سألتها:

ـ هل تحفظين آية الكرسي؟

ـ لا.

ـ وسورة التوحيد؟

ـ لا.

ـ هم...

زحفت عتمة المساء، فبدت الساحرة لتافاوت مخيفة بلباس الحداد الفاحم الذي ترتديه.

أخيراً قالت:

ـ تعالي يوم الجمعة، مع المغرب. اغتسلي في «عين الديس». اجلبي دجاجة بيضاء ودزينة من بيض دجاجة أخرى لم يعاشرها ديك.

ثم أولتها ظهرها علامة على انتهاء الزيارة.

وما أن قطعت تافاوت بضع خطوات باتجاه بيوت القبيلة حتى استوقفتها العرافة وسألتها بغتة:

ـ هل أنت عذراء؟

نطقت عينا الفتاة بالاستنكار، ولكن العتمة حجبت هذا التعبير المكابر على الساحرة التي تعاني من ضعف البصر ككل العرافات الزنجيات. اختفت تافاوت فعادت الساحرة إلى غيهب الظلمات:

ـ السرّ في الطهارة. قولي من الآن ولا تتعبيني إن لم تكوني عذراء!

ـ ٣ ـ

اشتهر منهج الساحرة التباوية في الواحات الجنوبية بسبب التزاوج بين استخدام التمائم الوثنية التي عكف أشهر السحرة الزنوج في «كانو» على استعمالها وبين التعاويذ المستحدثة المستوحاة من نصوص القرآن.

هذا المزج كان من ابتكار التباوية التي ولدت وولد معها السرّ شأنها شأن كل العرافين في الصحراء. واحترفت هذه المهنة بعيد عودتها من رحلتها الطويلة إلى أواسط القارة. أقامت في «كانو» بعد وفاة زوجها الفقيه هناك، وعادت بالعلم الغزير لتنفع به أبناء الواحات الأشقياء الذين تركتهم يعانون

اضطهاد الأرواح الشريرة وعادت لتجدهم على نفس الحال في معاركهم مع الجنّ وخوفهم من المستقبل. تنقلت معهم في الصحراء زمناً لم يطل، إذ أشاحت عنهم الأرواح الخيِّرة وأغار الأشرار على الدنيا بحملات الكسوف والخسوف فانقشع الغيم سبع سنوات وعمّ الجفاف والوباء.

استقرت بالواحة مع بعض العائلات من القبيلة، وانتظرت في صبر ما سوف يسفر عنه عراك القوى الخفيّة.

أقبلت الفتاة مع الغسق. غلالة شفافة من السحب حجبت قرص الشمس فبدا من وراء الغلالة قانياً واعداً بنهار قائظ في الغد.

في هذه الفتاة شيء يخيفها. قرأت في عينيها وعيداً خفيّاً. ستحاول أن تقرأ في المرآة ما عجزت عن قراءته بعينيها الضعيفتين.

سفحت الدم تحت قدميها. نحرت الدجاجة الناصعة، وخضبت قدميها بالسائل الحار في خطوط متوازية على طول الأصابع. قرأت التمائم الوثنية القديمة فوق طبق البيض الطاهر ثم كسرتها مثنى وثلاثاً ورباعاً ولوثت بها أصابع قدم الفتاة وهي تتمتم بالتعاويذ والآيات القرآنية. نثرت البخور في موقد النار وغطت رأس تافاوت بلحاف شديد السواد وهي لا تكف عن ترديد الآيات والتعاويذ. في النهاية دست لها تحت اللحاف الأسود مرآة مثبتة في إطار دائري منسوج من الوبر المصبوغ، وطلبت منها أن تنفخ فيه بخاراً من فمها ثلاث مرّات. وكانت تسحب المرآة وتتفحصها في العتمة وتعاود دسّها تحت اللحاف. في النهاية أطلقت سراحها وذهبت إلى الكوخ وعادت من دون أن تتوقف عن التمتمة بالتمائم. همهمت:

ـ رأيت عجباً. هل يعقل أن يبعث الميت ويقتل الحي؟ شيء لا يصدق!

استمرت تتمشى حول الموقد، ثم أعلنت:

ـ جلّ من لا يخطىء. قراءة مستقبلك صعب يا ابنتي، ولكن هذا لا

يمنع من أنك ستتمكنين من نيل مبتغاك. ستتزوجين من تحبين ولكن بشرط..

ازداد انتباه تافاوت في حين اختتمت العرافة قراءتها:

ـ الصبر. عليك الصبر.

الصبر هو الحلقة المفقودة في حياة الفتاة. كل شيء إلّا الصبر. قوة شخصيتها جعلت من الصبر مرادفاً للذل. إذا أرادت شيئاً نالته الآن. إذا وعدت برّت بوعدها فوراً. إذا نوت نفّذت في الحال. إذا اعترضت لا يثنيها حتى القهار. وكانت العمة الحكيمة أول من لاحظ افتقاد الفتاة الشقية لنعمة المرونة التي يطلق عليها العرّافون ذلك التعبير الخفي: الصبر!

وقالت العمة في حديث مع أخيها، عم الفتاة: «مسكينة. سوف تشقى كثيراً. لم يخلق لحياة الدنيا من ولد فاقداً لنعمة الصبر».

وكانت دائماً تردد عندما تتشاجر مع البنيّة لسبب من الأسباب: «ما هذا العناد؟ لا شك أن الخالق أخطأ. كان ينوي أن يخلقك رجلاً».

ولم تكن العرّافة تعرف أن الطبع يغلب التطبع، وأنها راهنت في نبوءتها على الجواد الخاسر في حياة الفتاة.

يومها، بعد النبوءة الخطرة، فتحت تافاوت جرابها، وأغدقت على الساحرة الهدايا النفيسة. قرط من الذهب وثلاثة أساور من الفضة وعقد من الخرز وقطعة نقود ذهبية. فغرت العجوز فمها من الدهشة حتى أنها غفلت عن تهديد تافاوت التي قالت وعيناها تومضان بالشر في العتمة:

ـ إذا لم تصدق نبوءتك قتلتك.

وانطلقت نحو أحراش النخيل وقدماها ما زالتا نديتين بالدم ومحار البيض اللزج، ثم أحسّت بالغثيان، وبدأت تتقيأ.

ـ ٤ ـ

قبل أن يرحلوا إلى الصحراء أعلنت لعمتها أن تبلغ عمّها أنها لن تتزوج أبدان بعد فضيحته. وبدلاً منه قررت أن تتزوّج أمود. لم تعترض العمة ولا العم ولم يوافقا أيضاً. وكلما ألحّت في الحصول على جواب واضح، غمغمت العجوز بغموض:

ـ ربنا يقدّر الخير.

وهي لغة تعرف تافاوت أنها مستعارة من أفواه الفقهاء والسحرة عندما ينوون التخلص من أمر يستوجب الحسم. ولكنها استمرت في الإلحاح والعناد حتى انتزعت الموافقة. قالت العجوز:

ـ سبحان الله. وما الفرق؟ موسى الحاج هو الحاج موسى. إذا لم يكن الزواج من أخ فمن أخيه. كان مش الراجل خوه. المهم أن تعرفي أن الزواج بأحدهما مكتوب على الجبين.

في ذلك الوقت توقفت الحرب مع الطليان، وعمّ الهدوء واحات الدواخل. ولكن لم يمض زمن طويل على عودتهم إلى الصحراء حتى جاء الطليان يجنّدون الفتيان للاشتراك في حملتهم على الحبشة.

في المرة الأولى أخذوا رجلاً من كل أسرة. قادوا «أبدان» من المراعي المجاورة مع فرقة من شباب القبيلة، وحشروهم في معسكر بواحة مرزق لتلقي التدريبات اللازمة قبل الانضمام إلى الحملة. ولكنهم عادوا بعد ثلاثة أشهر فقط وانتزعوا بقوة النار كل من وقع بين أيديهم من الشباب. قالوا إن الدفعة الأولى بائسة ولن تؤثر في عزيمة الهمج الأحباش ورأوا أن يدعموا الفرقة الأولى بمزيد من الرجال. في هذه المرة جرجروا أمود أيضاً بعد أن انتزعوه من بين يدي أبيه ولحق بأخيه الذي كان وقتها قد التحق ببرّ الحبش البعيد.

طال انتظارهم.

في ذلك الوقت، قررت تافاوت أن تعشق أمود. قالت لنفسها إن الشباب خلقوا للحرب، ولا قيمة لفارس لم يذق طعم الدم والبارود. وهو الآن يلهج باسمها في أدغال القارة ويغير على قبائل الحبش كي يهدي لها النصر. وهو سيعود. لم تشك أبداً في أنه لن يعود. عليها فقط أن تصبر وتنتظر. الصبر هو ما تتمنّاه ولم تتقن ممارسته. في المراعي تغنت بالأغنية البرية الشهيرة: «يا دنيا: أنتِ الصبر وأنتِ الحيلة».

الناس يتغنّون بالأشياء المفقودة.

وكانت تلتقي بالعرافة بين البيوت بعد أن أشرفت على فقدان البصر، كعمتها، ككل عجائز الصحراء. وما أن تعرفها أو تبادر هي بتعريفها بنفسها حتى تسارع العرافة إلى طمأنتها وهي تعصر يدها في كفها التي تشبه أصابعها أعواد الحطب: «عليك بالصبر. لا شيء يستقيم بلا نعمته. هذا ما يعوزك يا بنيتي».

مضت شهور أخرى قبل أن تأتي الأنباء من الشمال بخسائر الحملة.

في البداية قال رسل الطليان إلى الصحاري إنهما من ضمن المفقودين. ثم عادوا بعد مرور أسابيع أخرى وأعلنا أنهما حيّان وسيصلان قريباً بطريق القوافل الذي يمر عبر غات. ثم أفادت الأخبار المشؤومة أنهما قتلا، ثم عادت وأصرت على التأكيد بأنهما أسرا فقط.

وطوال انتشار هذه الروايات المتذبذبة ظلّت تافاوت معلقة في الفراغ بخيط أمل يوشك أن ينقطع. ولكن درّبت نفسها على فضيلة كانت تفتقدها بالطبيعة: الصبر.

في النهاية عاد «أبدان» الذي سبقته شائعة قبل وصوله تقول إنه مات منذ المعارك الأولى.

أخبار «أمود» انقطعت.

خسارة.

لم تنقطع أخباره إلا بعد أن ربّت نفسها نهائياً على حبّه، ولم تعد تتصوّر أن يفوز بها رجل سواه.

- ٥ -

أبدان أخبر أنه أنقذته من الموت لفافة تبغ وقطعة طرونة صغيرة رشا بها الضابط الحبشي عندما وقع في الأسر فوجد طريقة يهرّبه بها مع قافلة إلى «كانو». ومن هناك التحق بقوافل الصحراء المتجهة نحو الشمال، وأمود ضاع لأنه لا يملك في جيبه هذه اللفافة السحرية ولا طرونة الشياطين تلك. عندما وصل الرسول الذي زفّ بشرى عودة أبدان قبل وصوله بأيام، نقلت لها عمّتها قرار عمّها بإتمام الزفاف مع وصوله كي تكون الفرحة فرحتين. قال إنه لن يستمر في مهادنة مزاجها المتقلب وقراره نهائي خاصة وأنها بلغت سناً لا يسمح لها بالانتظار والمداورة. لم تعلّق على القرار. الاعتراض لن يفيد. تذكرت أنها ولدت لتتزوج أحدهما. كان مش الراجل خوه. والأخ الذي اختارته ضاع في ظلمات الأدغال. تنازل الكبار عن كبريائهم مرة ولن يتنازلوا مرتين حتى لو طلبت مجرد التأجيل. مزاجها متقلّب. هكذا عبّر عمّها في قراره. هذا إنذار برفض أي اعتراض. نصبت الخيمة وارتفعت الزغاريد وقرعت الطبول وزنّت أوتار «امزاد» في الخلاء. وصل الغائب فاستقبلوه بطلقات الرصاص والرقص وعواصف الزغاريد و... بالعرس. سيدخل عليها ليلة الخميس، وستنجب منه أولاداً يرثون عاره. لا يتوارث أهل الصحراء شيئاً كما يتوارثون فضائح الأخلاق وقصص العار. حتى عودته من الحبشة من دون بقية المحاربين أثارت الشائعات ولوّثته بعار جديد. لا يعود من الأسر إلّا من جبن أو اقترف خزياً مماثلاً. الأسير دائماً

جبان. الأسير دائماً يخفي سرّاً. وإلّا ما هو ثمن نيله لحريته إن لم يقدّم تنازلاً لا يليق بالفرسان والنبلاء؟ عذارى القبيلة على حق. أضاف عاراً جديداً إلى عاره السابق بعودته. وعليها هي التي سترتبط به أن تدفع الثمن. ستتلوّث بعاره أيضاً وربما أكثر منه. المصيبة عليه أهون، فلا يبدو أنه يبالي كثيراً بفعلته في الواحات، ولا يبدو أنه سيكترث كثيراً أيضاً للأقاويل حول نجاته المشبوهة. الفرسان لا يعودون من المعارك. الأنذال فقط ينجون. الجبناء فقط يعودون. وأمود فارس وبطل. وهي لا تستطيع أن تلوّث سمعته بالارتباط بأخيه الجبان الذي أضاف إلى نفسه عاراً جديداً. الموت أهون ألف مرة. استيقظ فيها العناد القديم الذي اعتقدت زمناً أنها دفنته سنوات الانتظار الطويلة إلى الأبد. تبدد الوهم وغلب الطبع. أيقنت أن النبوءة زائفة فتأجج فيها الحقد على العرافة. و. . قررت أن تقتلها.

أفشت السرّ على الفور لصديقتها تاناد التي لم يبد أنها اندهشت كثيراً. قالت بلغة مجهولة:

ـ كنت أعرف أنك ستفعلين شيئاً كهذا.

كانت تتفحص وجهها في مرآة صغيرة مثبتة في إطار من جلد الثعبان، تكحّل عينيها الكبيرتين وتعتني بزينتها. ثم ألقت بالمرآة في جراب الجلد البديع، وأضافت وهي تتأهب للخروج:

ـ ولكن كيف ستنفذين نيّتك؟ الساحرة لا تموت بأي سلاح.

استغربت تافاوت. نسيت أنها ساحرة. كيف يستطيع معشر العرّافين أن يفوزوا بهذا اللقب الجليل إذا كانوا يموتون مثل الناس؟

واصلت تاناد:

ـ ألم تلحظي عدد الأحجبة على صدرها؟

أجل. العرّافة التباوية تعلّق عدداً كبيراً من التعاويذ على صدرها محفوظة

في جلود الحيوانات والزواحف وموسومة بنار التمائم. لاحظت هذا العقد المهيب، ولكنها لم تعره اهتماماً كبيراً.

قالت تاناد:

ـ حجاب ضد الجنّ وآخر ضد الإنس، والثالث ضد إبليس، والرابع ضد مكائد الزمان وغدر الدهر، والخامس ضد الرصاص والبارود والسلاح الأبيض.

حاولت أن تقرأ رد فعلها، ثم أضافت:

ـ التباوية جنيّة كبيرة.

عندما رأت الحيرة على وجه صديقتها تطوعت وعرضت مساعدتها. قالت:

ـ بماذا ستجازيني إذا ساعدتك في هذا الأمر؟

ـ أعطيك ما تريدين.

ـ الصداقة صداقة والكراء كراء. ستقدمين لي خدمة فقط بأن يعود الغائب وتتزوجي من تحبين. زواجك من أمود يكفيني.

دهشت تافاوت. هل تلمح إلى أنها. . يا إلهي! تريدها أن تتنازل لها عن أبدان. هي تحب أبدان. ها. . ها. . ها. . خذيه بعاره القديم والجديد. حقاً ان العشق أعمى.

أومأت لها بأنها فهمت، فكشفت تاناد الحجاب، وأفشت سرّ السلاح الشيطان الذي يستطيع أن يقتل العرّافة. حدثتها عن المدية التباوية الموجودة في أمتعتها، ووعدتها بأنها ستسرقها وتقدّمها لها هدية لتنفيذ خططها لأنها الوحيدة التي تعرف أين تخبئها العجوز. التقت نظراتهما ووقعتا معاهدة صامتة.

- ٦ -

يقال إن العرافة ورثت المدية الخفية عن جدّها. وقد ساعد سحرة «كانو» وعرّافوها المخيفون في إعطائها المفعول السحري، فبثّوا فيها في روحهم وخبرتهم. حفروا عليها تمائم الشياطين الوثنية وحصّنوها بتعاويذ المسلمين فنزعوا أذى السلاح الأبيض ومفعول البارود وبثّوه في المدية السرّية ووضعوها في يد تامولي كي تحتفظ بها في مكان آمن. ويقال إن إمام تمبكتو البارع المتخصص في مصارعة أعتى الجنّ قد ختم على المدية وبارك الحصن الحصين ووعدها بعمر نوح إذا نجحت في إبقاء السرّ قيد الكتمان. ولكن الاحتفاظ بسرّ في الصحراء معجزة، فقد انتشر خبر المدية وسبق العرافة قبل وصولها إلى الواحات.

ولكن تامولي لم تكن تخشى أهل الصحراء، أبداً، وترى أنهم دراويش وبلهاء. وكان هذا خطأها. خطأ العظماء الذين يمنعهم الكبرياء من الاعتراف بمواهب الخصم الضعيف، فيكون حتفهم على أيديهم. حتف الكبير في يد الصغير، وحتف القوي في يد الضعيف. وكانت ككل العرافين تعرف هذه الحكمة. ولكنها أغفلتها في ظل الاسترخاء والكسل الذي تتميز به الواحات الجنوبية.

شيء آخر ساهم في صياغة المكتوب، فقد خالفت العرّافة تعاليم العرافين، وخانت تجارب الحياة عندما تراجعت، في لحظة ضعف أو استرخاء، وقرأت لتاناد مستقبلها البائس. طاردتها طويلاً وتوسلت مراراً وأغدقت عليها الهدايا والاغراءات، ولكنها رفضت أن تكشف لها الحجاب عن غيب سوف يسيئها أن تعرفه. وكان عليها إما أن تكذب وإما أن ترفض القراءة. وفي النهاية اختارت الطريق الثالث الخطر، وكشفت لها عن الحقيقة المؤذية، ففازت بحقد الفتاة، وبيتت لها الشرّ. الأخطاء الصغيرة عندما تتكرر هي التي تقود إلى الهلاك.

هذه أصغر حكمة لدى العرافين الحكماء في «كانو».

- ٧ -

تسللت تافاوت إلى خباء العجوز في الليل. أصداء الطبول ما زالت تتردد في السهل. ما زال الفتيان والفتيات ساهرين في خيمة العرس المشؤوم. رائحة «الفيسوخ» والبخور ومستحضرات أخرى غريبة تعبق في الخباء.. رائحة خاصة.. رائحة السحرة والمجهول. تحسست العامود وبحثت عن مرقد العجوز في العتمة. المكان بجوار العمود المركزي كان خالياً. وقفت تتنصّت للتنفّس. شعرت بإحساس خفي أن العرّافة تحاول أن تتبينها في ظلمات الخيمة. السحرة لا ينامون. صدق حدسها. سمعت حفيف اللباس في الزاوية قبل أن تتساءل باستنكار:

- من؟ من هنا؟

هجمت إلى الزاوية وهي تشهر المدية الشيطانية. ركعت على الأرض، وبحثت بيدها اليسرى عن رقبة العجوز. خيل إليها أنها رأت عينين حمراوين تدوران في الظلام كعيني غول. أمسكت بالرقبة، فندّت شهقة مكتومة عن العرافة. تكومت فوقها، وغرست المدية الفظيعة في نحرها. حشرجت العجوز، وبدأت تنتفض. أبعدت يد ضحيتها اليمنى بيدها اليسرى، وانحنت برأسها نحو رأس العجوز حتى لامس نهداها طرف المدية العلوي مقررة أن تثبتها بصدرها للتأكد من اندفاع السلاح في الرقبة. غمغمت:

- هذا مقابل كذبتك التي قضت على حياتي يا مشؤومة.

لحظتها حدث شيء لا يمكن أن يحدث إلا مع العرّافين.

في اللحظة التي تراخت فيها تافاوت فوق ضحيتها واعتقدت أن مهمتها قد انتهت. سحبت العرافة المقبض نحو نحرها فانغمد السكين في صدر الفتاة. حدثت الحركة بسرعة، كمعجزة من القدر.

ندّت عن تافّاوت شهقة مفاجئة، وارتجفت لحظة ثم استسلمت فوق ضحيتها.

أسلمتا الروح في اللحظة نفسها، ووجدهما الأهالي في اليوم التالي غارقتين في الدم والعرق، ملتصقتين ببعضهما كأنهما كانتا تؤديان طقوساً وثنية أو كانتا تعتزمان ممارسة فعل جنسي شاذ.

تافاوت لم تتفحص المدية المزدوجة. تاناد أخبرتها بحيلة المقبض، ولكنها لم تقل لها إن المدية مزدوجة، فأعادت إليها العجوز الداهية الطعنة بطعنة.

في جعبة العرافين دائماً تختبىء مفاجآت أخرى.

- ٨ -

ليت تافاوت تذرعت بالصبر حتى الغد.

في الليلة نفسها مات أبدان ملدوغاً. قيل إنه فتح جراباً جلدياً اشتراه في «كانو» عندما كان يعتزم أن ينام، فتسللت منه أفعى شرسة لدغته، فمات في الحال.

وبينما الناس يتهيأون لمواراة الموتى الثلاثة في التراب أقبل رسول مع المساء وزفّ بشارة. قال إن أمود بلغ «آدرار» في طريق عودته من الحبشة.

- ٩ -

مسكينة تافاوت. لم توهب نعمة الصبر. نبوءة العرافة لم تصدق لأنها لم تصبر حتى الصباح، والعرافة ماتت لأنها لم تسمع التحذير في غمرة انبهارها بالذهب.

الذهب مرادف للموت في قاموس السحر.

هكذا يقول العرافون الحكماء في «كانو».

(١٩٨٩)

السلطان

- ١ -

قال الرجل المجاور للعريس:

ـ أخيراً سنتسلّى. غداً سنشكل حكومة.

وفرّك يديه بخشونة.

انطفأت الشمس.

انسحب آخر فارس من الحلبة. انطلق المهري حتى غاب في الأفق. بدأت حلقة النساء تتشتت. تحرّك الرجال الزرق ونزلوا المرتفع. مشوا ببطء وحذر وكبرياء، فبدوا في أقنعتهم الزرقاء وجلابيبهم الواسعة منفوشين كالطواويس.

انفضّ الاستعراض.

انتهى المهرجان.

بدأ العرس.

الدخلة.

في الليل هربت العروس. اعتقلوها في عتمات الفجر وجاؤوا بها إلى العريس قبل الشروق.

في الصباح، مع الأصيل، تشكلت الحكومة واستوى السلطان على العرش بجوار العمود.

فرك «موخامّد» يديه مرة أخرى وقال بنفس الحماس:

ـ شكلنا الحكومة. أنا الوزير الأيمن.

تفقّد الحاضرين بنظرة شاملة. ضاقت عيناه بابتسامة غامضة. عبر فوق رؤوسهم الملفوفة بالقماش الأزرق وتوقف بعينيه على «أخدّاش». قال:

ـ أخدّاش سيتولى الجناب الأيسر.

ثمّ فرّك يديه وخاطب حضرة السلطان:

ـ ما رأي جناب السلطان؟

السلطان لم يعلّق. اكتفى بأن أومأ بالموافقة بهزّة خفيفة من رأسه.

بدأت طقوس الشاي الأخضر. انشغل ثلاثة رجال في تكديس الحطب أمام الخباء.

بعد قليل ارتفع في الصحراء ذيل كثيف من الدخان.

مع الأصيل استبدّت الشمس. تهيأ السلطان لتأدية أول طقوس السلطنة. تنفيذ أول بنود الميثاق القديم المبرم بين آدم وحواء. تقديم الفروض في حرم أم العروس.

في المدخل، قبل أن يتحرك الموكب، تساءل أحد الشباب:

ـ نسيتم أمر المستشارين. نريد أن نعرف المستشارين.

تبادل السلطان مع وزيره الأيمن نظرة دالّة. أسرع «موخامد» ينفي جهله بالمراسيم:

ـ كلنا مستشارون. كل الجماعة أعضاء في مجلس الشورى حسب الشريعة!

وكي يخفي ارتباكه اقترح:

ـ يجدر أن تختاروا رجلاً مناسباً يتولّى منصب الجلّاد. هذا أهم من أي منصب آخر.

تساءل أحدهم بحيرة:

ـ الجلّاد؟!

اسرع موخامّد إلى قمع أي اعتراض:

ـ نعم. نعم الجلّاد. لن يستقيم أي حكم بدون جلّاد. هل تريدون تشكيل حكومة بدون جلّاد؟ أين رأيتم سلطاناً يقف على رأس رعيّة بدون مساعدة جلّاد؟

فوجيء موخامد بحماسته فأنزل الطرف العلوي من اللثام على عينيه وبرر حماسته:

ـ ها قد بدأنا الشورى. تشاوروا في الأمر حتى نعود. مهمتي كوزير أيمن أن أقترح.

التفت نحو السلطان وأومأ له بالحركة.

تحرّك الموكب باتجاه المضارب مشياً على الأقدام.

ـ ٢ ـ

في الظهيرة جاءت كوكبة من النساء بالغذاء. ثلاث قصعات كبيرة من الكُسكُسي. انتهزن الفرصة وسوين وضع المخدع. الرجال تركوا لهن المجال وخرجوا للتمشي في العراء. جاءت مجموعة منهن بسلال مليئة

بالرمل وسكبنها على الكوم المستطيل. ارتفع المخدع بضعة أشبار أخرى. تغطّت الثلة الرملية بكليمة تواتية فاخرة. المخدع يتخذه السلطان عرشاً أيضاً. سلال الرمل زادت من جلال العرش. جاء الرجال من المدخل الأمامي فانسحبت النساء من المدخل الخلفي. انقسم الرجال إلى ثلاث مجموعات، وتكأكأ كل فريق على قصعة. تحلّق الوزيران حول تلّة السلطان لمشاركته الطعام. انضم إليهم الدرويش المرشح لدور المهرّج وكذلك أماسيس المرشح لتولي دور الجلّاد.

بعد الغداء بدأت المشاورات بشأن بقية الأدوار.

في النهاية فاز أماسيس بدور الجلّاد، وأمغار، الدرويش، بدور المهرّج. وتقاسم الرعاة والأتباع والزنوج بقية الأدوار الوضيعة.

وكان من الممكن أن تمر الليلة بهدوء بعد توزيع المناصب وتشكيل الحكومة لولا حماقة المهرج.

لم يكن أحد من أعضاء الحكومة، بما في ذلك السلطان «أمود» نفسه، يعلم، حتى ذلك الوقت، أن كل شيء يبدأ من حماقة المهرّج.

هذا حدث مع السلاطين في أعرق الامبراطوريات، بما في ذلك الامبراطورية العثمانية نفسها.

- ٣ -

لم يكن بوسع «مجلس الشورى» أن يخلع دور المهرج على شاب آخر غير الدرويش أمغار. ليس لأنه درويش ومعتوه فقط ولكن لأن القبيلة كلها عرفته منذ الطفولة بأنه مهرّج بالسليقة، يتخذ من عرف النخيل جملاً يمتطيه في تنقلاته بين المضارب، يردد الشائعات البذيئة وينقل الروايات الممتعة عن مشاجرات الأزواج في الليل أو نشاط العشّاق في عتمات الفجر. وبرغم

أسلوبه الشيق في الرواية إلّا أن الحياء منع الكثيرين، خاصة أولئك الذي يسمّون أنفسهم عقلاء وأعياناً، من أن يتزاحموا حوله في العراء كما يفعل الرعاة والأتباع، وآثروا الاختلاء به على انفراد. أمّا الشباب فلم يطلبوا الخلوة بأمغار بدافع الفضول. هناك سبب آخر.

أمغار هو المصدر الذي يستقي منه الشباب المعلومات الخفيّة عن العذارى. يروي لهم ما خفي من حياتهن. أجسادهن، سيقانهن، أفخاذهن، نهودهن. كل ما خفي من أعضائهن. لأنه الوحيد الذي تمكن منذ طفولته الاطلاع على حياتهن السرية. ولعبته في التلصص على الأعضاء الخفية بدأت عندما ضبطته عمته متلبساً بدس رأسه تحت ثيابها في أثناء وقوفها فوق الموقد للتنعم بالدفء في ليلة شتاء قاسية. هجمت عليه وضربته بمهماز النار على رأسه فبكى وهرب إلى الجيران. لحقته وانتزعته من بين يدي جارتها وأعادته إلى البيت حتى لا يفشي سرّ غضبها عليه. اضطرت أن ترشوه بقطعة سكّر كي تضمن صمته. ولكن أمغار اللئيم استمر في اللعبة، فكان ينتهز الفرصة ويتسلل برأسه ليرى ما تخفيه عمته تحت لباسها المنفوش كلما اشتدت رغبته في الحصول على السّكر. لأن المحاولة يعقبها الضرب، والضرب يليه الهرب والتهديد بإفشاء السرّ. فتجد المسكينة نفسها مضطرة إلى ترضيته بأي ثمن. ثم زحف بلعبته اللئيمة إلى خارج الخباء، ونفذها مع أنبل الصبايا وأجمل الحوريات في القبيلة.. تلك الحوريات المتغطرسات اللاتي جمعن الجمال والأصل النبيل والمواهب في نظم قصائد الشعر حتى ذاع صيتهن في ربوع القبائل البعيدة، فجاء الفرسان الأغراب من أهجّار وآير للاستماع إلى أشعارهن.

أمغار اكتشف أن نقاط الضعف مطمورة تحت الثياب المنفوشة، فاستغل عادته واطلع على العيوب الخفية. ومكنته عادته من أن يبلغ في الابتزاز حدّاً جعله يستولي منهن حتى على الحلي والمجوهرات واللباس الذي يخبئنه للأعراس.

الخبثاء في القبيلة علقوا أن هذا من عادة الدراويش. إذا كبر كبرت معه فضائله ورذائله. أمغار الذي كان يكتفي بقطع الحلوى في الطفولة لقاء صمته أصبح لا يرضى بغير الحلي والمجوهرات عندما شبّ.

ولقد وجد المناخ المناسب ليطوّر من أساليبه فابتزّ الشباب الذين ينوون الزواج ويتعطشون لمعرفة أسرار الخطيبات، فيأخذ منهم لا ما يعطونه ولكن ما يشتهيه هو. لأن ثمة أسراراً لا يرى الشباب البلهاء، خاصة أولئك الذين يدَّعون النبل والكبرياء، أن يدفعوا نصف حياتهم ثمناً لها: تلك الأسرار المتعلقة بالشرف، بعذرية الفتاة، بماضيها. هذا ساهم في رفع أسهم الدرويش.

أمود أيضاً لجأ إليه عندما أراد أن يتزوج «تالا».

أخذه من يده واختلى به على انفراد في السهل الممتد خلف الوادي وقال له:

ـ خبرني الآن؟ ماذا رأيت تحت اللباس؟

ـ ها.. ها.. ها.. شامة!

ـ لعنة الله عليك. أسألك عن العيوب وتقول لي: شامة!

ـ ها.. ها.. ها.. بالنسبة للكثيرين الشامة عيب وبالنسبة لكثيرين الشامة...

رفع يده وقبلها علامة النشوة وأضاف:

ـ سكّر. قطعة سكر. الشامة حلوة!

ـ لعين. أنا لم أفكر في الشامة قبل اليوم. هل ترى أنها حلوة؟

ـ جدّاً. ها.. ها.. خاصة عندما تكون في الفخذ، في بطن الردف، في الجزء العلوي. ها.. ها.. ها..

ـ يا خنزير! كيف وصلت إلى الجزء؟ كيف بلغت بطن الفخذ يا شيطان؟

ـ ها.. ها.. هذا عملي. سرّي. الدرويش لا يلام على حماقة. ها.. ها..

ـ هل في السيقان شيء آخر؟ ماذا عن السيقان؟

ـ أعرف. أعرف. كل الشباب يسألون عن السيقان. السيقان أهم شيء. أهم ما في المرأة. بالسيقان تستعبد المرأة أي رجل. ها.. ها.. ها... اطمئن. السيقان تمام. سليمة. رقيقة. طويلة. هذا سيضمن لك أن تكون عبداً مطيعاً. هل تريد أن تكون عبداً مطيعاً؟ ها.. ها.. ها...

ـ اسكت يا خنزير. اسمع. ماذا عن الأفخاذ؟ هل هي بيضاوية؟

ـ ها.. ها.. ما معنى بيضاوية؟

ـ لعنة الله عليك. بيضاوية معناها بيضاوية. مثل بيضة الدجاج. ألم تر بيضة دجاج؟

ـ أنا لا أحب البيض. لا أحب الدجاج. يثير اشمئزازي. كيف تشبّه ردف «تالا» ببيض الدجاج؟ سأخبرها بذلك. ها.. ها...

قفز أمود:

ـ لا. لا. أرجوك. كنت عاقلاً منذ قليل. لا تفعل ذلك.

ـ ماذا ستعطيني؟ ها.. ها..

ـ يا بن الـ...

ـ ها.. ها..

ـ تريد أن تبدأ في الابتزاز. حسناً. سأعطيك كل ما تريد على شرط. انس سيرة البيض والدجاج.

ـ ها.. ها.. أنت تعرف أن العار سيركب رأسك إلى الأبد إذا رويت السيرة.

ـ أعرف. أعرف. سأعطيك معزاة.. معزاتين. اتفقنا؟

ـ ها.. ها.. ها... سأفكّر في العرض.

ـ أنت خنزير.

ـ ها.. ها...

ـ ٤ ـ

كل عذارى القبيلة تعلّقن بأمود.

تعلقت به الصبايا منذ صباه، وبلغ العشق بصبيّة زنجيّة حسناء تكبره بثمان سنين أن هجمت عليه في المرعى وحاولت اغتصابه قبل أن يبلغ التاسعة.

وفي الحادية عشرة تأكد أن باتا الأرملة الفاتنة راودته عن نفسه واستأثرت به دون صبايا القبيلة زمناً.

ولكن علاقتهما لم تدم طويلاً، إذ عرف كيف يفلت ويهرب إلى غدامس لترتيب صفقة تجارية مع القوافل القادمة من «تمبكتو». وبالطبع لم يذهب إلى غدامس، بل مكث في وادي الجعيفري يرعى إبله طوال الصيف، وما أن أبلغته ريح القبلي بموعد نزول القبيلة إلى الوادي حتى قطعه في الاتجاه المعاكس وتوغل في الصحراء الجنوبية صوب «عوينة ونّين». اعتزل في تلك الفلوات قرابة العام والنصف. ثم عاد إلى القبيلة في الحمادة وبدأ طوره الغريب الذي استمرّ حتى اليوم. «والطور الغريب» في معجم الرحل يطلق على الانطواء عادة. وبقدر ما يزعجهم أمر هذا الطراز من الناس بقدر ما يزيدون في مراسم الاحتفال به. ربما تكفيراً عن كراهيتهم الخفيّة له، وربما بسبب الخوف الميتافيزيقي كخوفهم من الأرواح والعرافين والاحساس الجليل بالموت.

وبالطبع كانت النساء أول من بادر بالابتعاد عن أمود. أسفن كثيراً ولكنهن لم يجرؤن على اطلاق الشائعات كما لم تلجأ الشاعرات إلى هجائه بالقصائد كما تعودت نساء القبيلة أن تفعل مع أمثاله من المتكبرين. ربما لزمن الصمت لنفس السبب أيضاً. إذ لا أحد في القبيلة، بل في الصحراء كلّها، يتجاسر ويرمي المرابط أو الولي بالحجارة. قام العقلاء وترجموا احساسهم الغامض الذي أثارته فيهم عزلته إلى اللغة اليومية فسمّوه «ولياً» و«مرابطاً» و«مسكيناً» ووعدوا من يؤذيه بالعذاب يوم القيامة. ساعد الشيوخ في هذا الظن تيتّم أمود منذ الطفولة. توفيت الأم رعباً من رؤية أول نصراني يدخل الصحراء بعد شهور من مولده. إذ ارتكب الكولونيل فلاترز(*) حماقة واصطحب معه في حملته الأولى لغزو الصحراء أكثر الضباط غطرسة في سلاح الفرسان الفرنسي، فراق لأحد هؤلاء الضباط أن يتسلّى بالفرجة على البدويات اللاتي سمع كثيراً عن سحرهن فتسلّل إلى الخباء في أثناء انشغال بقية الضباط في المفاوضات الشهيرة مع الزعيم أخنوخن في خيمة كبيرة نصبت خصيصاً تحت سدرة في السهل الشمالي. ولسوء حظ الأم المسكينة أنها كانت نائمة عندما فتحت عينيها فوجدت رأس النصراني الأشقر يحدّق في وجهها بعينيه الزرقاوين وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الشياطين.

أغمي على المرأة وماتت بعد يومين بالفجيعة.

أمّا الأب فقد أجهزت عليه نفس الحملة المشؤومة. إذ التحق بالفرسان الذي جمّعهم أخنوخن بعد أسابيع لإبادة فلاترز عقاباً له على الإخلال بأحد نصوص المعاهدة، فسقط الأب المسكين في أثناء المعارك. ويقال إنه لقي مصرعه بيد نفس الشيطان الذي كان سبباً في موت الزوجة.

تولّت تربية اليتيم عجوز خلاسيّة غامضة جاءت من واحة «آدرار»

(*) فلاترز: عقيد فرنسي قام بتنظيم حملة لغزو الصحراء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولقي مصرعه هناك.

خصيصاً لهذا الغرض. قالت إن قرابة بعيدة تربطها بأب الطفل وهي أولى بتولّي تربيته من الأرامل الزنجيات اللاتي تعودت القبيلة أن توكل لهن تربية اللقطاء واليتامى.

كبر أمود في كنف العجوز الخلاسية وكبر معه بهاؤه الأسطوري.

كان بهاءً خفيّاً حقّاً، قلما وهبه الله لغير عباده الأخيار، فلم يسحر الولد الصبايا لتمتعه بذلك الجمال الفارغ. جمال القامة ولون البشرة وسواد العينين، ولكنه سحر خفي وصفه أحد أتباع الطريقة القادرية المتجولين بتعبير فاز بإعجاب الناس. قال: «هذه سيماء سيدنا يوسف. سوف يكون للولد شأن». ثم فاجأ الحاضرين بأن ركع أمام الصبي ولثم التراب أمام قدميه الحافيتين.

وبرغم الدهشة التي أثارها الشيخ الجليل بهذا العمل إلا أن أحداً لم يصدّق يومها هذه الخرافة.

وقليلون هم الذين تذكروا النبوءة عندما عاد أمود من عزلته في فلوات الصحراء ورأت فيه القبيلة وليّ الله.

وربما لم يتذكرها أحد على الإطلاق.

- ٥ -

لا يعرف أحد كيف سلّم هذا الملاك، معبود العذارى، نفسه للزنديق موخامّد، الشابّ الشره المعروف في القبيلة بقساوته وحبّه للولائم واللحوم. ويروى أن صداقتهما توطدت في المراعي. ويؤكد ذوو الفضول وعشاق الثرثرة أن أمود المسكين مدين بحياته لموخامّد الكريه حيث أنقذه من الموت عطشاً سنوات خلوته المريبة في الصحاري الجنوبية. ولا يوجد أي دليل يجعل الناس يصدّقون هذه الشائعة. ولكي يهدىء الحكماء من روع الأهالي البلهاء نفوا أي غرابة في اجتماع هذين الضدّين طالما الحياة نفسها

لا تستمر إلا بتزاوج الأضداد.

هذا الرأي الحكيم لم يشفع للضّد الثاني (الشيطاني) من حملة الصبايا. اذ تأجج حقدهن عليه أكثر من ذي قبل. فازدادت الشائعات ضدّه كثافة حتى بلغت قبائل بعيدة في الصحراء. وهجته شاعرة القبيلة بقصيدة قاسية شهيرة اقتطع منها الفتيان بيتاً شنيعاً ورددوه في جوقة جماعية تنقلت بين المضارب. البيت يقول: «. . .ويتسكع بين البيوت بكرشه المنفوش، كأنه يحمل فيه جنيناً». وأكثر ما أثار الناس البرود الذي قابل به موخامد هذه الحملة. اكتفى بأن استغل فرصة تفقده لإبل عشيرته في «مساك صطفت» فنزل إلى غات وقصد زنجياً عجوزاً في سوق الحدّادة اشتهر بنظم أشعار الهجاء حسب الطلب وكتابة بعض التعاويذ السحرية المشبوهة حسب الطلب أيضاً. ولكن أهالي غات طعنوا في فعالية التعاويذ. أمّا القصائد فقد تمتعت بسمعة طيبة ليس في الواحة وحدها وإنما في «تاسيلي نآزجر» وجانت ونجوع البدو في «مساك صطفت». ثم عاد بالقصيدة إلى القبيلة واستأجر أشهر الزنوج لإذاعتها بين الناس.

وكانت النتيجة لا تصدق:

انهارت الشاعرة وأحرقت لسانها بمدية ملتهبة وعاشت بقية حياتها خرساء. فاستطاع موخامد الرهيب أن يضمن سكوت بنات القبيلة بضربة واحدة ومضى يتنقل بين البيوت كالطاووس، يتنعّم بولائمه ولحومه ويتمتع برفقة «سيدنا يوسف» الذي سرقه من العذارى فحطّم بذلك قلوبهن إلى الأبد.

- ٦ -

الدرويش أيضاً يتيم، فقد أبويه بوباء الجدري عندما كانوا يقيمون بالواحات فأشرفت عمته على تربيته حتى أصيبت بالعمى فحطم أمغار آخر

قيد وتحرر وتشرّد. سرح بين البيوت ينام ويأكل حيثما حلا له؛ لا يفرق بيوت الأقارب من بيوت الأغراب، أهل القبيلة من أهالي القبائل الأخرى. ولم يلمه أحد، لأن الدرويش هو الإنسان الوحيد في الصحراء الذي أعطاه الله حق الخلاص من وزر العار.

قبل أن تفقد العمة بصرها لم تكن تسمح له بالتشرّد برغم الدروشة. فكانت تطارده بين البيوت قبل حلول المساء. وكثيراً ما تضطر المسكينة أن تضع في رقبته حبلاً خشناً من الليف وتجرّه إلى الخباء وهو يملأ الصحراء بالصراخ والضحكات. ويروق للأطفال أن يتجمعوا ويقتفوا أثرهما ليعيّروه بالحبل الملفوف على الرقبة فكان يبصق في وجوههم ويلعنهم ثم يعود إلى الضحك والشكوى من خشونة الحبل. كما شاهد الفضوليون مراراً العمّة العجوز وهي تطعمه بيديها بجوار موقد النار بعد أن تكون قد أحكمت الوثاق حول رجليه ويديه وربطته بالحبل الشرس إلى وتد أمام الخباء حتى لا يهرب في الليل.

ولكن زمام أمغار أفلت تماماً بعد فقدها البصر وانطلق راكباً جريد النخل عابراً العراء بين البيوت.

ثم.. زاره جبرائيل وأهدى له فرساً جديدة.

في الماضي تعوّد الناس أن يروه يتنقل على متن مختلف الأشجار وأعواد الحطب خاصة المستقطعة من أعراف النخيل. ولم يكن هو نفسه يولي المركوب اهتماماً كبيراً. وفجأة رآه الأهالي يحشو بين ساقيه تلك العصا الأنيقة المستقطعة من السدر. قال إن الملاك جبرائيل أشفق على حاله من ركوب المهاري فجاء له بفرس أصيلة.

وقد حاول بعض الخبثاء أن يستفزوه كالعادة فسألوه:

ـ ما الذي يجعلك تسميها فرساً يا أمغار؟ لماذا لا تكون حصاناً ذكراً؟

مسح اللعاب السائل من بين أسنانه الناتئة وقال وهو يتهيأ للانطلاق:

ـ مللت ركوب الذكور. أنا الآن لا أركب إلاّ الإناث. الفرس أفضل مركوب. ها.. ها.. جبرائيل قال هذا أيضاً.

وحشا عصاته بين ساقيه وانطلق يجرّ ذيلاً كثيفاً من الغبار في حين غرق الشباب في ضحك طويل.

بعد ذلك اليوم اتخذ الشباب من العصا وسيلة كلما أرادوا استفزاز أمغار أو قرروا أن ينتزعوا من لسانه سرّاً عن الصبايا، فكانوا يتعمدون اختلاس «الفرس» عندما يهجع ويستسلم لنوم القيلولة، وفي بعض الأحيان يعمدون إلى انتزاعها منه بالقوّة. وكان المسكين يبكي بدموع حقيقية (ليست كتلك التي يذرفها عندما تجرّه العمّة بالحبل الشرس) ويتوسل إليهم أن يردوا له «أمانة جبرائيل». هنا يجد الأوغاد فرصتهم في الابتزاز فيطلب هذا وصفاً دقيقاً لجسد فلانة بنت فلان ويسأله آخر أن يروي له ماذا سمع البارحة في خيمة غريمه بوشا الذي ينافسه على قلب الحسناء «تاني».

وكان أمغار يستسلم باستمرار ويروي كل ما يعرف عن تناسق جسد فلانة بنت فلان وما سمعه وما لم يسمعه من حديث بوشا في خيمته، وقد اضطرته الاستفزازات والابتزازات أن يخترع ويختلق ويكذب ويؤلف الأساطير، سواء عن حياة العذارى الخفية أو مؤامرات الزوجات الغيورات ضد الأزواج المزواجين. وبلغ التهوّر ببعض الشباب أن سخروه لإنجاز أحط المهمات مقابل أن يعيدوا له عصاة السدر. فلعب دور الوسيط في إبلاغ الرسائل الغرامية، كما تولّى إبلاغ الوعود والتوصيات بين العشاق ونقل كلمات الحب من المتهورين إلى مسامع نساء متزوجات.

ومن أين للدرويش أن يعلم أن الناس على استعداد أن يبيعوا جبرائيل نفسه في سبيل انجاز اغراضهم الشيطانية فكيف بعصاته المقطوعة من شجرة السدر؟

ثم جاء اليوم المشؤوم الذي اختفت فيه العصا.

اختفت كما تختفي كل الكنوز التي تهبها السماء فجأة. استيقظ أمغار من نومه في مربط الماعز ولم يجدها. ظنّ أنها دعابة أخرى من الأشقياء لابتزازه وإجباره على ابلاغ مكتوب، ولكن لم يعلن أحد عن نفسه حتى الأصيل. رفع صوته بالبكاء وطاف المضارب بحثاً عن العصا الضائعة دون أن يعترف أحد من أبناء القبيلة بالاستيلاء عليها. بجوار المرتفع التقى بأمود وتوسل له أن يستعمل نفوذه لاستعادة العصا. قال وهو يمسح اللعاب:

ـ أنت تعرف أنها عطية جبرائيل. تركها أمانة في عنقي. ماذا سأقول للملاك الرحيم عندما يسألني عن الأمانة؟ أنت الوحيد الذي يستطيع أن يتدخل ويستعيد الأمانة.

ابتسم أمود وتهكّم:

ـ من قال لك إن جبرائيل لم يستعد أمانته؟ الملاك أعطى، الملاك أخذ. أليست العصا عصاته؟

هرش الدرويش رأسه وتفكر قليلاً ثم مسح اللعاب بذراعه وقال بشك:

ـ هل تظن ذلك؟ ولكنّي لم أره في الليل. لم يزرني.

قال أمود وهو يسحب طرف اللثام على فمه ويخفي ابتسامته:

ـ لم يشأ أن يزعجك. أخذ حاجته وانسلّ إلى السماء بهدوء.

كتم سخريته، ولكن أمغار رأى ضحكته في عينيه، فبكى واشتكى:

ـ أنت تسخر منّي. حتى أنت تسخر منّي.

ـ لا أرى سبباً للسخرية. انسَ عصاة جبرائيل وسآتي لك بفرس أجمل منها من سدر الحمادة. أنت تعرف أناقة سدر الحمادة.

ـ لا أريد سدر الحمادة. أريد فرسي. فرس جبرائيل. كيف تقارن سدر

السماء بسدر الحمادة؟ ثم.. ثم..

بدأ ينتحب. مسح دموعاً. قال:

ـ... ثم ان هذا فأل سيء. أنت لا تعرف ما معنى أن تضيع فرساً من السماء. أنت لا تعرف أن في العصا سرّي أم أنك تظن أنك الوحيد الذي يملك سرّاً؟

ـ أنا لم أقل أني أملك سرّاً.

ـ أنت تخفي ذلك. أنت تخفي سرّك. أتظنني لا أعرف؟ وأنا كذلك أخفي سرّي. لا تقل لأحد ما قلت. لو عرف الأوباش سيحرقون العصا. عدني أنك لن تخبر أحداً بما قلت منذ قليل.

ـ لن أقول.

ـ أنا ثرثار!

ـ لا تهتم. إذا لم تجد العصا فتأكد أن الملاك استعادها. اطمئن.

ـ لن اطمئن.

ـ...

ـ هذا فأل سيء!

ـ ٧ ـ

العصا لم تظهر.

كما لم يقتنع أمغار بأن جبرائيل استعادها. طاف البيوت باكياً وقال إن الملاك زاره في الليل ووجّه له نظرة طويلة غاضبة قبل أن يختفي. عاد يردد أن هذا فأل سيء. بل إنه هدّد القبيلة كلها بمصيبة إذا لم يبحث له العقلاء عن العصا السماوية. وعندما يئس استسلم لحزن لم يعهده فيه الأهالي. حاولت الصبايا أن يخففن عنه المصيبة فاصطحبنه إلى المراعي وكشفن له عن صدورهن وسيقانهن، ولكنه لم يخرج عن كآبته ووجومه. عقد له

الشباب حلقة رقص وغناء ولكنه لم يشارك ولم يطرب. أهدى له الشيوخ قطع الحلوى ليعيدوه إلى مرحه أو بالأصح ليستعيدوا مرحهم من خلال مرحه ولكنه وزّع الحلوى على الأطفال والعذارى وتقوقع داخل حجابه الكئيب.

وقتها فقط شعر الناس بالفراغ وعرفوا ما معنى أن يحزن درويش القبيلة. عرفوا أنها قبيلة شقية وبائسة تلك التي لا يتنقّل درويشها على عصا بين البيوت كما كان يفعل أمغار.

هنا توقفوا عن المزاح وقرروا أن يجدّوا في البحث عن العصا المفقودة.

بحث عنها الرجال والنساء، الصغار والكبار. بحث عنها حتى شيوخ القبيلة. حتى الشيخ «أفوس» المهيب نفسه، استدعى أعوانه ورجاله، وطلب إليهم أن يجدوا العصا المشؤومة بأي وسيلة. وقيل إنه فعل ذلك حتى يقي القبيلة شرّ المصيبة التي هدد بها الدرويش إذا لم يعثروا له على هدية الملاك السماوي. في ذلك الوقت قرر أمغار أن يستنطق عمته العجوز وينتزع منها الاعتراف.

تقرفص أمام الموقد، وقال لها:

ـ اعترفي أنك أطعمت النار بالعصا.

دحرجت حبات مسبحتها الخشبية بأصابع مرتعشة قبل أن تحتج:

ـ ما الذي يحملك على هذا الظن الخبيث؟

ـ لأنك لم تحبيها منذ أول يوم. لأنك تعتقدين أنها سرقتني منك، من البيت وسرحت بي في الأرض. اعترفي أنك تحقدين على جبرائيل لأنه أهدى لي هذه الفرس.

ـ وهل أنت رسول حتى يزورك جبرائيل؟

ـ ولماذا تظنين أن الملاك لا يزور إلا الرسل؟ الله يرسل ملائكته لمن يحب.

ـ وهل أنت حبيب الله؟

ـ ولماذا لا يحبني الله؟ هل أنا شرير؟

ـ لا أرى سبباً يجعله يحبّك أيضاً.

لم يرد أمغار. صمتت العجوز أيضاً. جلسا متواجهين حول الموقد الخابىء كما تعودا أن يفعلا طوال سنوات. المسبحة لم تفارق يد العجوز منذ أن عرفها. عاشت وحيدة، ولم تعاشر رجلاً في حياتها. ويشاع في القبيلة أنها تلقت المسبحة هدية من أحد شيوخ القادرية كي تحميها من الغواية ومكائد إبليس. ويبدو أن التميمة نجحت حقاً في إبعاد شياطين الإنس أيضاً عن طريقها فلم تتزوج ولم تعرف طعماً لرجل حتى عجزت وشاخت وتهيأت لملاقاة الله وهي ما تزال بتولاً. ولم يعرف أحد سبباً لهذا الزهد في الرجال.

انتفضت فجأة.

أحسّت بسائل ساخن يقطر على يديها. في البداية ظنّت أنه لعابه، ولكن لعاب أمغار لم يكن ساخناً في يوم من الأيام. لعابه دائماً بارد. والقطرات التي تسيل على يديها الآن حارّة مثل الجمر. قطرات الدموع. لم تمسح الدموع عن يديها. قالت:

ـ هل أنت شقي؟

لم يجب. سمعت نحيبه الصامت. توقفت عن مطاردة حبات المسبحة، وأعادت السؤال:

ـ هل أنت شقي إلى هذا الحدّ؟

هي تعرف متى يكون صادقاً في شقائه. تعرف من عشرة السنين الطويلة متى يبكي بدموع مزيفة ومتى يبكي بدموع حقيقية.

سمعته يجيب بصوت كالهمس:

ـ نعم. أنا شقي.

في الصباح أعلن الشيخ أنه لم يعثر على «الفرس الضائعة» فأحسّت العجوز بقلق خفي لأول مرّة.

هذا حدث قبل تشكيل الحكومة بأسابيع فقط.

ـ ٨ ـ

برغم أنه لم يرفض أن يتبوّأ منصب المهرّج إلّا أنه لم يتنازل عن كآبته. وبّخه الوزير الأيمن، فقال:

ـ أين رأيتم مهرّجاً بهذا الحزن؟ كأننا نحن المهرجون وأنت السلطان. هيّا بنا يا جماعة نبتدع الدعابات لنفرّج عن السلطان أمغار ونحمله على الضحك!

تضاحك مجلس الشورى، ومسح الدرويش لعابه بكفّه. رفع بصره نحو السلطان أمود في عرشه الرفيع، وقرر أن يمارس وظيفته ويسلّي الجمع. اعتدل في جلسته وحكى دعابته. قال بلهجة جدية لا تليق بلغة مهرج:

ـ كنت بجواره عندما أطلق رائحة كريهة. رائحة كريهة ومسموعة على بعد خطوات من حلقة النساء.

تبادلت الجماعة نظرة دهشة طويلة. تبادل السلطان مع وزيره الأيمن نظرة حائرة أيضاً. في النهاية مال موخامّد نحوه وسأل بفضول:

ـ من الذي أطلق رائحة كريهة ومسموعة على مقربة من النساء؟ من؟

رفع المهرج نحوه نظرة غائبة، وقال بتحدّ عجيب:

ـ أنت؟

ـ أنا؟!

ـ نعم. ومن غيرك؟ رائحة كريهة ومسموعة. اعتقد أن الصبية «تافاوت» سمعتها أيضاً. بإمكانكم أن ترسلوا بوفد إلى بيتها إذا كنتم لا تصدقوني. ربما شمّت الرائحة الكريهة أيضاً. رائحة العفن. اللحوم. الشحوم. ها.. ها... لا شك أنك تعاني من متاعب في البطن. لم تقض حاجتك في ذلك اليوم. أراهن على ذلك. ها.. ها.. ها...

ساد الوجوم.

التقت النظرات، وتسابقت الأيدي لإنزال الأقنعة على العيون. عمّ الخجل.

ـ أنت تكذب.

ـ ها.. ها..

ـ يا كلب!

ـ ها.. ها.. ولا تنابذوا بالألقاب. اشهدوا عليه يا جماعة. يتنابذ بالألقاب في حضرة السلطان.

ـ من الذي سلّطك حتى تبتدع هذه الكذبة؟ هل هي الشاعرة الخرساء؟

ـ الشاعرة لا تسلّط أحداً. الشاعرة خرساء. ها.. ها... القصيدة التي اشتريتها من غات قضت عليها. مسكينة. لو كانت تقول الشعر لما تجاسرت وأزكمت أنوف الصبايا بالعفن. ها.. ها...

ـ أنت كذّاب!

ـ ها.. ها..

ـ أنت ثرثارا

ـ ها.. ها.. لقد فعلتها. اعترف. هكذا. هكذا.

نهض، ووقف أمام أنف السلطان، وكشف عن مؤخرته، وانحنى إلى الأمام، وأطلق رائحة حقيقية وسط دهشة مجلس الشورى.

تقافزت الجماعة، وانفضّ المجلس. قهقه المهرّج بصوت عال، ولكن السلطان ظلّ جالساً، جامداً على عرش الرمل الرفيع. موخامّد أيضاً لم يتحرّك. استعاد وعيه وصرخ في الجماعة:

ـ عودوا إلى هنا. ادعوا المجلس للانعقاد حالاً. هذه ليست إهانة لجناب السلطان. هذا اعتداء على الحرم، على شرفنا كلنا. أين أخدّاش؟ كم جلدة تقترح أيها الوزير الأيسر؟ لا ترض بأقل من خمسين، بالسوط المفتول. أين أماسيس؟ أين الجلّاد؟

خرج من الخباء، وبدأ يعيد الشبان إلى المجلس وهو يردد في وحشية:

ـ خمسون جلدة. خمسون جلدة. بالسوط المفتول. والله لن ينجيك من القصاص حتى ملاكك المزعوم جبرائيل.

قفز أمغار وصرخ في مواجهته:

ـ لا تأت بسيرة جبرائيل على لسانك. أنت الذي سرق أمانته من بيتي. أنت.. أنت. هل تريد أن تعرف من أنت؟ أنت زنديق وكريه. كل من يحمل كرشاً منفوخاً باللحوم مشؤوم ومكروه من الله والناس.

جنّ موخامّد.

أعد بنفسه كل شيء. جاء بالسوط المفتول، ونصب عموداً عالياً أمام الخباء، وصلب عليه الدرويش المسكين بمساعدة الجماعة، ثم سلّم

السوط لأماسيس الجلّاد وأمره بتنفيذ الحكم.

بدأ التنفيذ مع استواء الشمس على عرشها في قلب المساء. حرّ. العرق يقطر من جبين أماسيس ومن يديه وهو يجلد أمغار. تمزّق ثوبه الوسخ المخطط من الجلدة الأولى. وفي الجلدة الثالثة أو الرابعة أبصر الجلّاد خيوط الدم فانهار تماماً. توقف عن العمل، وترنّح خطوات في العراء ثم بدأ يتقيأ بصوت عال. أسرع موخامّد واختطف منه السوط الشرس وصبّ على رأسه بعض اللعنات ووصفه بأنه جبان وقلبه قلب امرأة.

اضطر أن يجلد أمغار بنفسه.

هنا استغاث الدرويش بالسلطان لأول مرّة. عندما تلقى الضربات الأولى من يد أماسيس لم يعترض ولم يشك. ولكنه احتج بمجرد أن اقترب موخامد:

ـ ابتعد يا مكروه. هذا يخالف القانون يا جماعة. أين رأيتم وزيراً أيمن يستعير دور الجلّاد ويجلد الرعية بيده؟ هذه مخالفة يا جناب السلطان. إذا لم يتدخل السلطان ضد وزيره الظالم حسب من الطغاة. أنت طاغية يا أمود. أنت تعد مؤامرة مع وزيرك منذ زمن بعيد. مسكينة القبيلة التي ترى فيك «سيدنا يوسف». القبيلة عمياء اذ ترى فيك مرابطاً. أنا وحدي أعرف السرّ. ها.. ها.. ها...

صرخ موخامد وهو يجلده بوحشية:

ـ اسكت يا ثرثار. سوف أعرف كيف أجعلك تخرس. سأخرسك إلى الأبد يا..

وجّه له أمغار سبّة بذيئة، وخاطب مجلس الشورى:

ـ إذا سكت الرجال على الظلم مرّة وضعوا رقابهم في القيود واشتروا الذلّ إلى الأبد، أصبحوا عبيداً إلى الأبد. أنتم الآن عبيد. وسوف يأتي

دوركم. من يضطر باخيك سيتغدّى بك. ها.. ها.. أمود سيتغدى بكم بمساعدة كلبه موخامد. ها.. ها.. من المؤسف أني لن أتمتع بمشاهدته وهو يتغدى بجلودكم لأني سأكون وقتها مع جبرائيل في السماء. ها.. ها.. عليكم اللعنة.

تركوه مصلوباً حتى الصباح.

حاول اخدّاش إنقاذه من الهلاك، فتصدّى له موخامّد بشراسة. في النهاية اضطر الوزير الأيسر أن يستقيل وأعلن انسحابه من اللعبة قائلاً:

ـ عندما قبلت المنصب اعتقدت أنكم تنوون التسلية البريئة، حكومة، لعبة بريئة كالعادة.

اعترض موخامّد:

ـ ومتى كانت الحكومة لعبة بريئة؟ الحكومة هي الحكومة منذ أن طرد الله آدم من الجنّة وقام قابيل بذبح أخيه هابيل.

ـ أنا بريء من دم أمغار. أنا بريء من الدم.

وانصرف أخدّاش.

تابعته الجماعة في صمت حتى غاب خلف المرتفع.

ـ ٩ ـ

رغم انكسار الشمس وميلانها نحو الغرب إلّا أن أشعتها النارية استمرّت في غطرستها. الدم يقطر من جسد أمغار المعلق في العمود. من فمه يقطر اللعاب في خيوط طويلة تلمع تحت الشعاع. ازدادت عيناه غوراً في محجريهما وتيبست شفتاه وغمرهما البياض. نزف جسده بآخر قطرة عرق فجفّ وحرقه العطش. بدأ تراجع الحياة مع نفاد الرطوبة. الماء هو الحياة. لا لون. لا طعم. لا رائحة. لا شيء. ماذا يمكن أن يسمّي الإنسان شيئاً

بلا لون ولا طعم ولا رائحة سوى: لا شيء؟ ومع ذلك فهو كل شيء لأن فيه يكمن سرّ الحياة. سرّ الحياة دائماً يختبىء في اللاشيء.

أمغار تحمّل الجلد وصبر على نزيف الجسد بالدم، ولكن نزيف الماء من الجسد صرعه، فقرر أن يهدد بإذاعة السرّ.

تكلّم بصعوبة:

ـ اسمع يا سلطان. أعطني قطرة ماء مقابل السرّ. أتذكر السرّ الذي حدثتك عنه؟ ما زلت احتفظ به لنفسي.

تبادلت الجماعة نظرة صامتة. رفع موخامّد رأسه. كان قد حشا بطنه بخروف كامل على الغداء. تظاهر بمشاركة السلطان الطعام فانفرد وحده بقصعة الكسكسي المتوجة بلحوم سخيّة لخروف ذبح للتو. ثم استسلم لإغفاءة القيلولة. انشغل بعض الجماعة في إعداد الشاي، وهجع آخرون في زوايا الخيمة. أمّا السلطان فظل جالساً على عرشه الرملي المهيب مصوباً نظرة شاردة نحو الأفق. لم يرد على توسلات الدرويش.

موخامّد أيضاً عاد وتوسّد ذراعه وأغفى.

توسّل أمغار بصوت مبعوث من قاع بئر:

ـ سأحتفظ بالسرّ إلى الأبد مقابل قطرة واحدة من الماء.

عمّ السكون.

علا طنين الذباب.

أغار على ظهر الضحيّة ولعق الجسد الملوّث بالدم.

هدد أمغار بالصوت المخنوق المنبعث من بئر عميقة:

ـ سأذيع السرّ. سأتكلم!

استمرّ السكون.

طنين الذباب يشتدّ.

اقترب الصوت القادم من بئر الظلمات. سمعه اليقظ والنائم بوضوح كأنه نزل من السماء هذه المرة:

ـ أمود الملاك. سيدنا يوسف الذي سجد له شيخ القادرية وعشقته كل صبايا القبيلة.. عاجز. هل تسمعون؟

ازداد السكون. خرس حتى الذباب وكف عن الطنين الملحاح. عاد الصوت السماوي الغريب:

ـ ها.. ها.. عاجز. أخفيت السرّ لأن أحداً لن يصدقني في الماضي. أمّا الآن فاللّي ما عنده شاهد كذّاب. اسألوا «تالا». الخبر عند تالا. ها.. ها... سيدنا يوسف مزيف. ها.. لا يكون الرجل بهياً بدون سرّ. عليكم اللعنة.

و.. سقط رأسه على منكبه.

ـ ١٠ ـ

لم يتحرّك أحد.

الدهشة أخرست الجميع، بما في ذلك السلطان أمود نفسه. طأطأت الجماعة رؤوسها الملفوفة بالأقنعة الزرقاء. لم يجرؤ أحد أن ينظر في وجه أحد. لم يرفعوا رؤوسهم نحو ضحيتهم المعلقة على العمود. لم يدر أحد ما إذا كان أمغار قد أغمي عليه أو أنه مات.

ظلّوا هكذا ساعات.

ثم سمعوا عويل العجوز وهي تتقدّم نحو الخيمة. هنا اضطر «موخامّد»

إلى أن يتخذ التدابير. تشاور مع السلطان سرّاً. تهامسا بتمتمات سريعة ثم اصطحب موخامد أحد الرجال وتحرّك نحوها ليعترض سبيلها.

أعادوها إلى بيتها بالقوّة.

لم يمض وقت طويل حتى أقبل مبعوث الشيخ «أفوس». ويبدو أن السلطان توقّع هذه المفاجأة فقرر أن يذهب لاستقباله في العراء بنفسه. حاول موخامد أن يتولى عنه الأمر كما حدث مع العجوز المفجوعة، ولكن السلطان أومأ له بالبقاء، ونزل من عرشه الرفيع، ومشى في العتمات يرافقه الجلّاد البائس أماسيس. تابعتهما الجماعة حتى غابا في عتمة المساء.

الشيخ بعث بالإمام لمفاوضته. من غير الإمام يصلح لمفاوضة السلطان في الصحراء؟

الإمام يرافقه المعمّر «مسيس» الذي تجاوز التسعين. هذا جزء من خطة الشيخ أيضاً. من غير المعمرين يصلحون لمرافقة الإمام في التفاوض مع السلطان؟ تواجهوا في العراء. بدوا في الظلمة كالأشباح وهم يتواجهون صامتين. تكلّم الإمام:

ـ متى كان الدرويش يلام على حماقة؟

ـ ليس الأمر بيدي. ما أنا إلا سلطان. والاحكام من شأن الحكومة. ألم تتربع على عرش الرملة في يوم ما؟

ـ كل من اقترن بامرأة في هذه القبيلة تبوأ العرش ولكن لم يتجاوز الأمر حدود المعقول.. حدود اللعب.

ـ كل شيء لعب. الحياة نفسها لعب. ثم ألم تكن أنت الذي أمرت بتعرية ابن عمّك أمام جمع النساء؟

ـ هل تقارن التعرية بجلد السوط وهدر الدم؟

ـ تعرية الرجل أمام جمهور النسوة أبشع من الجلد بالسوط في عرف الصحراء.

ـ أيعقل أن يكون الملاك، سيدنا يوسف، الذي سجد له شيخ القادرية في الطفولة هو الذي يتحدث معي بهذه اللغة؟

ـ ألم يخنق الشيخ أفوس بيديه وزيره الأيمن عقاباً له على جسارة عابرة؟

ـ أيعقل أن تكون أمود الذي عرفناه؟

ـ لديّ معلومات سوف تسيئك لو عرفتها عن تاريخ سلاطين القبائل الأخرى.

ـ أطلق سراح الدرويش.

ـ لست أنا من يقرر ذلك.

ـ أمغار مرابط. أحذرك من التنكيل بالدراويش.

ـ . . .

ـ خذ بجاهي، بجاه الشيخ أفوس. الشفاعة يا رسول الله!

ـ القرار في يد مجلس الشورى. سأعرض الأمر ولكن لا تنتظر مني موقفاً.

ـ هل أمود الذي يتحدث معي؟

استدار السلطان عائداً. مشى الجلّاد خلفه بضع خطوات.

صاح الإمام خلفه في الظلمة:

ـ ألن تستطيع أن تقبل الشفاعة حتى لو كان؟. . . .

صمت الإمام حتى ظن السلطان أنه لن يكمل الجملة ثم أضاف بلهجة غريبة:

ـ أخوك!

غرق كل شيء في الظلمات والسكون.

تحرّك السلطان فدحرج بنعليه أحجار الطريق.

عاد الإمام يصيح:

ـ أخوك في الرضاعة. أتسمع؟ إليك بالسرّ الذي لن تسمعه من أحد: أخوك في الحليب. هل تسمع؟

ازدادت الظلمة كثافة.

في الصباح وجد أعضاء مجلس الشورى أمغار ميّتاً. عيناه جاحظتان. بشرته زرقاء. وآثار حبل خشن أدمت جلدة الرقبة. فعرفوا أنه لم يمت عطشاً. كما لم يمت بسبب الجلد. مات في الليل مخنوقاً.

ـ II ـ

في الأيام التالية شهدت القبيلة أحداثاً تاريخية.

خرق السلطان ناموس الصحراء لأول مرّة، فطرد العروس من المخدع، وحرّم عليها دخول الخيمة. وشاعت شائعة تقول، إنه رمى في وجهها بالطلاق. ولكن سيمضي زمن طويل قبل أن يعرف الناس حقيقة ما حدث مع «تالا». لأن الأهالي انشغلوا بحدث أهم من خرق الناموس وأقسى من جريمة قتل الدرويش. اذ نقل عن العجوز تأكيدها أن أمغار هو أخ السلطان أمود من ناحية الأب. وتوقعوا أن تقع اللعنة السماوية لأن التجربة علمتهم أن الرجل اذا أقدم على اهدار دم أخيه فلن يقف في طريقه شيء. وردّدوا عبارة دموية قيل إنهم نقلوها عن الإمام:

«وهل يصير الإنسان سلطاناً دون أن يضطر إلى قتل أخيه؟».

أمّا أمود فقد استقبل مبعوث الشيخ أفوس. رجل طويل القامة، هادىء العينين. يده اليمنى مبتورة، فيحاول أن يخفيها في كم الثوب الفضفاض.

جاء في العشية. همّ «موخامّد» بطرده، ولكن السلطان أوقفه بإيماءة من رأسه، وخرج لمرافقته في العراء. عبرا الوادي وتوغلا في الخلاء الممتد جنوباً. موخامد اقتفى أثرهما طوال الوقت.

قال الرسول:

ـ الشيخ يأمر بأن تمثل بين يديه الليلة.

ـ متى كان السلطان يبرح العرش قبل انقضاء الأيام السبعة أم أن الشيخ ينوي تعديل ناموس الصحراء؟

ـ ناموس الصحراء لا يبيح ذبح الدرويش أيضاً.

ـ هل هذا رأيك أو رأي الشيخ؟

ـ أنا لا رأي لي. ما على الرسول إلا البلاغ المبين. لم يكن لي رأي ولن يكون.

ـ لماذا؟

ـ لا يحمل الرأي إلّا المغفّل. الرأي ثعبان في الكم.

ـ يا حفيظ!

ـ السلطان التركي يقطع رأس كل من دسّ في رأسه رأياً. كل من أعلن أن في رأسه رأياً. اللهم أجرنا شرّ الرأي.

ـ أنت حكيم.

ـ اللهم أجرنا. الحكمة أيضاً وزر. لن يهنأ بال حاملها إلى يوم الدين.

ـ أنت غريب! أنا لم أعرفك من قبل. يسعدني أني عرفت رجلاً مثلك.

ـ أمّا أنا فقد عرفتك عندما كنت ملاكاً يخفي رأيه، يخفي سرّه.

ـ أنا لا أخفي رأياً. أنا لا أخفي أي سرّ.

ـ قل هذا لموخامد وعصابته وليس لي. كنت عاقلاً في صمتك ولكن اعتداءك على الدرويش كشف سرّك. أنت الآن في خطر. لقد أفشيت السرّ. لن يحميك حتى عرش السلطان الذي تتربع عليه.

ـ أرى أنك تأخذ أمر العرش السلطاني مأخذ الجد. هذا يعجبني. أنت لست كالآخرين، لست كالإمام.

ـ الإمام مسكين. الإمام أحمق. لا يدري أن الدنيا كلها لعب. بل اللعب في الحياة أكبر شأناً من الجدّ. الأحمق فقط يرى الأشياء على أنها أشياء. يرى الظل على أنه ظل ويرى الضوء على أنه ضوء في حين أن العقل يقتضي أن تقلب الآية كي تصل إلى الحقيقة. الحقيقة في الظل. السحر في «كانو» مبني كلّه على هذا القانون.

ـ هل تتعاطى السحر؟

ـ لا.

ـ أنت تعجبني. لماذا لا تأتي وتتولّى منصب الياور؟

ـ أنا لا أتولى مناصب. أفضل أن أعيش في زاوية الخباء، في الظل.

ـ المنصب شاغر. لن تندم. لا أعرف كيف لم أعرفك من قبل.

ـ جئت فقط كي أبلغ وصية الشيخ.

ـ لا أعرف أين وجدك الشيخ. لا أعرف كيف لم أعرفك من قبل.

ـ . . .

ـ وما رأيك أنت؟ هل أكسر الناموس وأزور الشيخ ليضرب رأسي؟

ـ قلت لك لا رأي لي. جئت فقط لإبلاغ البلاغ.

غربت الشمس. زحفت العتمة. قام بينهما صمت. سكون الصحراء الخفي. توقف السلطان. واجه رفيقه وقال محاولاً أن يصطاد موقفاً من عينيه الهادئتين:

ـ أنا على استعداد أن أكسر ناموس ألف سنة إذا ضمنت أن الشيخ لن يضرب رأسي بالسيف.

قال الرسول بنفس الهدوء:

ـ أنا لن أضمن أحداً. الضمان أشر من الرأي. أنت تريد أن تقلب حياتي في ليلة.

رفع السلطان صوته:

ـ هل أنت ملاك؟ هل أنت شيطان؟ قل لي من أنت؟

قال الرجل ببرود:

ـ أنا رسول الشيخ. ما على الرسول إلا البلاغ المبين.

وقفا متواجهين طويلاً. فشل السلطان في أن يقرأ في عينيه الهادئتين، خلف اللثام، حرفاً واحداً، موقفاً واحداً.

عمّت الصحراء الظلمات.

ـ ١٣ ـ

«تالا» ليست أجمل عذارى القبيلة.

صبيّة رفيعة القامة حقّاً، ولكنها رفيعة الأطراف أيضاً، سمراء، شاحبة، مطفأة العينين، لا تقرض الشعر ولا تحتفظ في ذاكرتها برصيد كاف من أغاني الحزن والحنين. كما لم يرها أحد من شباب القبيلة تعزف على «أمزاد» السحري في أمسيات السمر تحت القمر. وإذا لم تشتهر الصبية لا

بالجمال ولا بتأليف أشعار الحب والهجاء ولا بالعزف على «أمزاد» السحري، ولا تخزّن في ذاكرتها عشرات الأغنيات التي تمتص الألم وتعبّر عن الحنين الصحراوي للمجهول، إذا افتقدت الفتاة في القبيلة لهذه الشروط فإنها لن تطمع في أن تفوز برفيق حتى من الأتباع فكيف بأمود الحائز على ألقاب جليلة (الولي، الملاك، سيدنا يوسف.. الخ) وتدلله كل الصبايا وتسعى لأن تفوز منه بمجرّد تحيّة عابرة في الطريق.

اختياره الغريب لـ «تالا» أدهش الجميع.

أدهش تالا أيضاً، وجعلها تبحث عن السرّ في استشارات العجائز. لم تفرح ولم ترقص. أحسّت بقلق خفي.

آراء العجائز لم تقنعها. لم تخنق قلقها الخفي.

تذكرت شيخ القادرية الجوّال. بل ربما كانت تالا الفتاة الوحيدة في القبيلة التي لم تنس ما تردد عن سجود الشيخ المهيب أمام أمود وهو طفل.

ربما كان أمر هذه السجدة هو الذي يزرع فيها القلق.

تسقطت أخبار الشيخ الرحّال. قيل لها إن أحد تجّار القوافل قابله في سوق غدامس. جاء من تمبكتو وتوقف في الواحة للاعتناء بناقته التي أصيبت بالجرب، وهو في طريقه لعبور الصحراء شمالاً.

الخبر كان صحيحاً.

وصل الشيخ إلى مضارب القبيلة بعد أيام من مرور القافلة. نصبوا له خيمة على المرتفع ونحروا على شرفه بضعة رؤوس من الماعز. لم يكن الشيخ المسكين يتناول لحوماً في طعامه. وشيوخ القبيلة يعرفون ذلك، ولكنهم يعمدون إلى نحر الماشية كل مرّة عند قدومه ليأكلوها بأنفسهم ويقولوا إنها ذبحت على شرف الشيخ وقدمت صدقة لليتامى وقرباناً للأولياء. الشيخ نفسه لم يكن يبارك هذه الطقوس ولم يعترض أيضاً.

يتخذون من مجيئه مناسبة لأكل اللحم ويطعمونه خبز الشعير.

نحروا على شرفه هذه المرة أيضاً وأطعموه خبزه المفضّل.

انتظرت حتى غادره آخر زائر وذهبت إلى المرتفع في ستار الظلمات. وجدته يثني ركبتيه في ظلّ الضوء الخافت ميمماً صوب القبلة، ينهمك في قراءة الأوراد.

أصابع يده اليمنى تنشط في دحرجة حبّات مسبحة طويلة.

قال فجأة دون أن يدعوها للجلوس أو يرفع حتى رأسه:

ـ إذا كنت تبحثين عن تعويذة أو نبوءة فأنصحك بالذهاب إلى العرّاف.

وقفت صامتة. قالت بعد تردد:

ـ العرّاف مات.

ـ رحمه الله. لم يخبرني أحد.

ـ ومتى كان شيخ القادرية يتسقط أخبار من ولد ومن مات؟ لم نعهد فيك الفضول.

ـ ربنا يجازيك على حسن الظن.

رفع رأسه نحوها فرأت تحت الضوء الخافت لحية بيضاء انحسر القناع عن جزئها العلوي. في عينيه صفاء غريب لم تعهده في عيون أهل الصحراء، صفاء المهاجرين الأبديين، صفاء السكينة. هل هذا ما تطلق عليه العجائز اسم السكينة؟

قال:

ـ والآن قولي: ماذا تبغين؟

ـ استشارة. مجرد استشارة. سؤال. أمود طلب يدي وأنا خائفة.

بلعت ريقها واعتدلت في وقفتها قبل أن تكمل:

ـ جئت أستفسر عن أمر السجدة. بعضهم يقول إنك سجدت له كي تقي الناس من شرّه، من شرّ الشيطان الذي رأيته فيه.

ـ لا تتزوجيه إن كنت خائفة. لا تعيري بالاً للسجدة.

ـ كيف لا أعير بالاً لسجدة شيخ القادرية؟ ثم..

بلعت ريقها مرة أخرى:

ـ ثم أني أحسّ بالقلق. اختارني من بين مئات الصبايا الجميلات. وأنا لست أجملهن. لست جميلة.

ـ القلق أهم من السجدة وأهم من جمال الوجه. القلق إشارة الضمير. إيماء الله.

ـ ألن تخبرني بأمر السجدة؟ ألن تشير عليّ بشيء؟

ـ لست مؤهلاً لأن أشير على أحد. كل مخلوق يحمل وزره، قدره، سرّه. لا أحد يشير على أحد. لا تطمعي في مساعدة أحد. اسألي نفسك. القلق هو الصوت الذي ينبغي لك أن تسمعيه لا صوتي.

لم تفلح ليلتها في أن تقنعه بأن يتكلّم. ولم تظن أن المشورة أمر صعب إلى هذا الحدّ. شيخ القادرية ضاعف حيرتها ولكن ليس من السهل مقاومة إغواء أمود أيضاً. الملاك. الولي. «سيدنا يوسف» نفسه يطلب يدها. كيف تجرؤ على الرفض لمجرد شعور خفي؟ لمجرد وهم لا أساس له؟ نعمة من السماء خصّها الله بها. فرصة إلهية إذا أفلتت فسوف تعيش عانساً إلى الأبد. سحر. نعم. في اختياره لها شيء سحري. شيء لا يقارن إلاّ بالسحر.

بعثت له بالموافقة تحت تأثير الشعور بالسحر.

انتصر مفعول السحر على الصوت الآخر: الخفي.

- ١٣ -

البارحة تعرّض السلطان لاعتداء.

رجال الشيخ اقتحموا الخيمة في قلب الليل وحاولوا أن يختطفوه مقيّداً.

أفلح ثلاثة رجال في أن يقيدوا يديه، ولكن جماعته استطاعت أن تنقذه. أصيب الجلّاد أماسيس بجروح. أحد المعتدين ضربه بالسكين في معصمه في حين خرج موخامد منتصراً. موخامّد قاد المقاومة وهزم المعتدين.

جلس بجوار السلطان في العراء في عتمة الفجر. اعتنى بعض الأتباع بأماسيس وأوقد بقية الشباب ناراً كبيرة.

السلطان لم يتوقف عن ملاحقة وزيره بالنظرات. أعجبه موخامّد. ليس ما أعجبه فيه هو البطولة في المعركة ولكن هذا الهدوء الذي لم يعهده فيه من قبل. خيّل إليه أنه يكتشفه لأول مرّة كأنه لم يعرفه قبل اليوم. استمر يلاحقه بالنظر في ظلمات الفجر.

قال موخامد:

ـ كادوا يتمكنون منك.

أجابه بعد صمت طويل:

ـ كادوا يتمكنون من الجميع.. ومنك أيضاً.

علّق موخامد بعد صمت أيضاً:

ـ هل تقصد أننا شركاء؟ أننا شريكان؟

حاول أن يتبيّن ملامحه في العتمة. لم ير شيئاً. موخامد أحكم إخفاء عينيه وراء اللثام. في النهاية قال أمود:

ـ ليس ثمة رابطة أقوى من الدم.

ـ هل تقصد الاشتراك في سفك الدم؟

لم يجبه السلطان، فاستمرّ بعد قليل:

ـ هذا صحيح. هذا يجعلني ألح على المواجهة. ليس أمامك خيار. لقد حشرت الشيخ على جدار الصخرة.

لم يعلّق السلطان، فواصل موخامد:

ـ صباح أمس استقبل عمّة الدرويش. قالت إنك قابيل وطلبت منه أن يقدّم لها رأسك. في العشية استقبل «تالا» أيضاً بعد تسلمها لورقة الطلاق. أنت وضعته في موقف لا يحسد عليه. إذا وقف يتفرّج لعنته القبيلة، وإذا قاتلك قبل إتمام اليوم السابع لم يضمن حياد الجنّ.

ـ هل تصدّق أن الجنّ تتولى حماية العريس ما لم يمر على الدخلة أسبوع؟

ـ وكيف لا أصدّق؟ ومن في القبيلة لا يصدّق؟ الشيخ نفسه يصدّق. ولكن ليس لديه خيار. أنت الآن محروس بجند الجنّ.

ـ رسوله الغريب كان على حق. ما كان ينبغي أن نقتل الدرويش.

ـ لا تندم على ما فات. الدرويش لا بد أن يموت. لا يصبح المرء سلطاناً دون أن يهدر دم أخيه.

ـ لا أحب أقوال هذا الأحمق.

ـ الإمام حكيم.

ـ لم أر حكيماً مثل ذلك الرسول المجهول. هل هو من الأتباع؟

ـ قلت مرّة إني لم أتبيّنه في العتمة. من الصعب أن تتبيّن ملثماً في الظلام.

ـ . . .

ـ يجدر أن نهتم بأمرنا. الوقت ضدّنا. بعد غد سيتخلّى عنّا جيش الجنّ ويتركنا نواجه مصيرنا. علينا أن ندبّر أمرنا خلال يومين، فرصة ما دمنا مدعومين.

أعلن السلطان وهو ينتصب فجأة:

ـ اتفق معك. بدأنا اللعبة وعلينا أن ننهيها. اللّي يعقدها بيديه يحلّها بسنونه. لم نحشره إلى الصخرة. الآن هو الذي يحاصرنا إلى الصخرة.

انتصب موخامد ووقف بجواره. ابتسم تحت القناع.

بديا وهما يقفان متجاورين في عتمات الفجر مثل شبحين شريرين.

ـ ١٤ ـ

فرّك موخامد يديه وقال:

ـ الحكومة أخيراً. كنت أعرف أن الشيخ سيموت. ولكين لم أجد فرقاً بين الحكومتين. اللعبة نفسها.

لم يضحك، فعلّق أماسيس وهو يوزع الشاي على طبق من نحاس:

ـ انتهى دوري اعتباراً من اليوم. ابحثوا عن جلّاد غيري.

ضحك موخامّد. استلقى إلى الوراء حتى انحسر لثامه عن أسنانه الشرسة. ثم اعتدل في جلسته وقال:

ـ هل سمعت يا سيدنا السلطان؟ أماسيس يريد أن ينسحب اليوم.

لم يعلّق السلطان، فواصل موخامّد وهو يلتفت إلى أعضاء المجلس:

ـ هل رأيتم جلّاداً ينسحب بعد أن لوّث يديه بالدماء؟ هل سمعتم برجل ينسحب من المعركة بعد انكسار العدو؟

قال رجل مهيب يسدل طرف لثامه العلوي على عينيه ويرسم على الأرض خطوطاً غامضة بعود حطب:

ـ الرجل الحقيقي هو الذي لا ينسحب من المعركة إلا بعد انكسار العدو.

احتج موخامّد:

ـ تعني الرجل الحقيقي. تعني الفارس وليس الجلّاد. أماسيس سجّان يتقن عمله. الأهالي يعترفون له بفضل تخليصهم من الشيخ. . . ومن. . الدرويش! فهل نعطيه الحق في أن ينسحب بهذه السهولة؟

أطلق قهقهة صاخبة حتى ارتجف كرشه المنفوخ. وثب أماسيس ووقف في مدخل الخيمة. صرخ بجنون:

ـ لعنة الله عليك. أنت الذي خنقت الشيخ. أنت الذي قتلت الدرويش. أنت سبب كل البلايا. تجرؤ وتتهم الآخرين بجرائم ارتكبتها يداك.

حذّر موخامد بهدوء:

ـ تمهّل! لا تنس أنك في حضرة السلطان. الحكومة هي الحكومة. تذكّر الحكم الذي أصدرناه في حق الدرويش. إهانة الوزير الأيمن مساس بهيبة الحكومة، اعتداء على السلطان.

تطوع أحد الأعضاء بشفاعة:

ـ لا تنسوا يا جماعة أن الشيخ المرحوم قريبه من ناحية الأم.

اعترض موخامّد:

ـ لا تبحثوا عن المعاذير. ما عقوبة الاعتداء على السلطان يا جماعة؟

ولكن الغضب استولى على أماسيس فنسي السلطان والحكومة والمجلس وغفل حتى عن مقتل الدرويش والشيخ أفوس. صرخ في وجه موخامّد:

ـ لا حدّ لشهيتك. الشاعرة معها حق. الشاعرة التي دفنتها وهي حيّة كما دفنت الآخرين. كما خنقت الدرويش والشيخ أفوس.

ثم التفت إلى مجلس الشورى وأعلن:

ـ اللّي يتغدّى بخوك يتعشّى بيك. تجلسون كالنساء حتى يخنقكم واحداً تلو الآخر. أنا بريء. أنا..

قاطعه موخامد ساخراً:

ـ اسمعوا الأبله. يظن أن الخروج من اللعبة كالدخول إليها. كان ينبغي أن تنسحب قبل مصرع الدرويش كما فعل أخداش. أخداش بريء ولكنك جلّاد. نفذت الحكم في الدرويش فكيف تستطيع أن تنسحب بعد كل هذا؟ ما رأي الجماعة؟ ما رأي السلطان؟

هزّ السلطان عمامته بالموافقة. في عينيه لمعت ابتسامة خفية. تبعه المجلس وهز الأعضاء رؤوسهم بالتأييد. فتح أماسيس ذراعيه حائراً، ثم ركل طبق النحاس، حيث صفقت كؤوس الشاي، محاولاً أن يكتم غيظه. تكسرت فناجين الزجاج وانكفأ الوعاء المليء بالشاي. تناثرت القطرات في وجوه المجتمعين وبلغت عرش السلطان بجوار العمود. رذاذ الشاي لوّث حاشية عباءته الزرقاء.

تبادلوا النظرات.

انسحب أماسيس واتجه إلى المضارب الشمالية في خطوات سريعة.

تابعوه بصمت حتى غاب وراء الربوة.

- ١٥ -

يروي أهل الصحراء أن أماسيس اختفى. ظنّ الناس أنه هرب ولم يعرفوا بمقتله إلّا بعد مضي سنوات. كان السلطان أمود قد استولى على طرق القوافل وفرض الجزية على التجار وأخضع القبائل الأخرى بالقوة. ثم طاف في الصحراء ليجمّع المحاربين.

في الواحات استقبلته فرق المرابطية بالدفوف. أما زنوج القبائل فقرعوا الطبول المعلقة في الرقاب ونفخوا المزامير المزدانة بخيوط الجلد الملوّن وتغنوا بالقصيدة الشهيرة:

أسد ينكرد أمود نكفي تيزادج اد شاغت تاجنين تيجير نيمزاد(*)

بعد شهور جمّع السلطان جيشاً مارداً يفوق جيش الجن عدداً سرعان ما وصلت انباؤه إلى الباب العالي في الأستانة. ويقال إن السلطان تسلّم تقارير من الوالي في طرابلس يحذّر فيها من نوايا السلطان أمود التي يرى أنها تشكل خطراً على طرق القوافل وتهديداً لنفوذ الامبراطورية العثمانية في الصحراء الكبرى.

ولم يمض وقت طويل حتى استقبل السلطان أمود رسول الباب العالي في خيمة مهيبة نصبت خصيصاً لإيواء هذا الضيف المثير الذي مكث

(*) عندما أقبل أمود استقبلناه بمهاري الحرب وشباب مدرّب يعشق الحرب.

أسبوعاً كاملاً يقاسم موخامد لحوم الذبائح ويقود المحادثات مع السلطان أمود بشأن الحرب والسلم وسلامة تجارة القوافل.

ويروى أن وثيقة تاريخية وجدت على ارفف الجامع القديم بواحة «آدرار» ممهورة بتوقيع السلطانين (سلطان الامبراطورية وسلطان الصحراء) تتحدث عن اتفاقية تتنازل بمقتضاها الامبراطورية العثمانية للسلطان أمود عن الجزية التي كانت تفرضها على تجارة القوافل مقابل أن يتولّى الأخير حماية تخوم الامبراطورية الغربية المهدّدة من قبل الفرنسيس. ولا أحد استطاع أن يجزم بوجود هذه الوثيقة برغم أن كثيراً من الرواة ادعوا أنهم رأوها وقرأوها بأنفسهم.

- ١٦ -

حتى ذلك الوقت ظنّ موخامّد أن السلطان جمع كل هذا الجيش لتنفيذ سرّهما القديم. ولكن لم يعرف المسكين أن الإنسان الذي اعتزل الناس عاماً وماتت أمه بالفجيعة وهو ملفوف في قماط الرضاعة، لا بد من أنه يخفي سرّاً آخر غير السرّ الذي يتقاسمه مع الرفيق.

ففي فجر أحد الأيام فاجأه السلطان بقرار التحرّك قبل الموعد المتفق عليه بأسبوعين. وبرغم دهشته من هذا التصرّف الّا أنه استطاع أن يسيطر على نفسه ويمتنع عن الاحتجاج. ولكن السلطان كشف عن مفاجأته الثانية عندما وصلوا إلى غات بجيش لم تره الصحراء في تاريخها. عسكروا تحت سفوح «أكاكوس» وفي الصباح أعلن السلطان الغامض عن مفاجأته الثانية: أعطى الأمر بالتحرّك غرباً نحو «تاسيلي» بدل الاستمرار في الزحف نحو الجنوب في عمق القارّة. هنا احتج موخامد وسأل:

ـ هذا طريق تاسيلي. طريق تاسيلي غير طريق أغاديس.

قال السلطان ببرود:

ـ أعرف ذلك. ولماذا علينا أن نسلك طريق أغاديس؟

دهش موخامّد:

ـ لا أفهم. ألم نتفق على غزو الزنوج؟ ماذا بشأن الغنائم؟ المحظيات الزنجيات وخلاسيات الابنوس الحبشيات. هل نسيت؟

عاد السلطان يقول بنفس البرود:

ـ هل أنت مجنون؟ هل تظن أن امرأة، أجمل امرأة، تستحق أن يتكبد الرجل في سبيلها مشقة أن يصبح سلطاناً حتى لو كانت بلقيس ملكة سبأ نفسها التي حدثنا عنها القرآن فكيف بزنجياتك العفنات؟

ضرب موخامد كفّاً بكف. قال حائراً:

ـ هل تريد أن تقول إن اتفاقنا كان مزحة؟ هل تريد أن تقول إنك خدعتني؟ بل خدعتني طوال الوقت؟ هل شكلنا الحكومة وقتلنا الدرويش والشيخ وأماسيس في سبيل...

قاطعه السلطان ساخراً:

ـ في سبيل المحظيات الزنجيات! أليس هذا مضحكاً؟ اسأل نفسك. رجّح عقلك. أين عقلك بالله؟

عاد موخامّد يضرب كفّاً بكف ويردد بلا وعي:

ـ خسارة. خسارة والله. آهٍ لو كنت أعلم أنك ستخدعني. آه...

ضوء الفجر شق الأفق. استمرّ حفيف المحاربين وهم يسرجون مهاريهم ويتهيأون للانطلاق. خفتت النار في الموقد، ولكن موخامد استمرّ يترنح بجوارها كالدرويش يتمتم بكلمات مكتومة ثم قفز فجأة. وقف في مدخل الخيمة وصرخ بوحشية:

ـ تذكرت! لقد تذكرت. أنت تريد أن تنتقم، أن تتجه إلى الغرب لأنك

تريد أن تقاتل الفرنسيس. لقد سكنت الظل طوال تلك السنوات واعتزلت في الوديان لأنك تعدّ الخطة وتتحيّن الفرصة لتنتقم لأمّك وأبيك. ها.. ها.. ها. كشفت حيلتك. استعنت بي كي تستولي على المشيخة. أنا البليد. الحمار! ها ها ها....

ثم سقط على الأرض وتلوّى على الرمل كالمجنون. هرع المقاتلون ليستطلعوا ما حدث، فصاح بهم وهو ما يزال يتلوّى أمام الخيمة:

ـ هل سمعتم؟ السلطان يريد أن يقاتل بكم الفرنسيس. ها.. ها.. سيدنا يوسف قبع في الظل. قبع في قاع البئر كل هذه السنوات كي ينتقم من الفرعون. ها.. ها.. لن أضحّي بالخلاسيات الحبشيات في سبيل أحقاد الطفولة. لن أذهب إلى تاسيلي. ها.. ها..

تجمّع حوله المقاتلون وهم يختلسون نظرات الدهشة نحو السلطان. اقترب السلطان وأومأ لهم بأن يقيّدوه. انقضّوا عليه كأنهم كانوا ينتظرون هذه الإشارة وأحكموا القيود حول يديه ورجليه وتركوه في العراء الموحش.

تحركت القافلة في طريق تاسيلي إلى «جانت».

(١٩٨٩)

القفـــص

(إلى آله الكوني)

«تحت اعواد القش عاش الأحرار، تحت سقوف الذهب والمرمر يعيش العبيد»

سينيكا

«الرسائل الأخلاقية إلى لوتسيلي»

«فجاءني العقل والنفس، وجاءني العلم والمعرفة. فقال لي مولاي: جزها إليّ عابراً. أنت عابر كل شيء، وألقها اليهم واعهد اليهم أن يبتنوا بها بيوتاً. فإنها هي مبلغهم، ليفارقوك وتفارقهم. ثم سر اليّ: فما هي بيتك ولا أنت من سواكن بيوتها أبد الآبدين»

م. ع. النفّري

«المواقف والمخاطبات»

١ ـ المعتقـلات

المعتقل مطوّق بحزام من الروابي شرق الواحة. جنوباً يستلقي العراء ويمتد حتى يفضي إلى القلعة العثمـانية الجليلة: المعتقـل القديم. لأن العثمانيين كانوا أول من اكتشف هذه الحيلة القبيحة فأقاموا أول معتقل في الواحة على قمة المرتفع عملاً بحكمة اناضولية قديمة تقول إن على الحاكم الحكيم أن يبادر الى تشييد الحبس قبل القصر ويقمع فيه العصاة قبل أن يخلد إلى الراحة في مقامه الجديد. ولكن تشييد المعتقل المهيب لم يمنع الرعية من التمرد. توالت الانتفاضات، فاضطر القائمقام إلى أن ينتقل إلى قلعته مع حاشيته ليتقاسم المعتقل مع سجنائه. ثم جاء الطليان، وجاءوا بفلسفة رومانية أقدم.

قـالوا إن القـلاع خلقت لأولي الأمر لأنهـا أقرب إلى مقـام الآلهة ولا يتقاسمها مع الخصوم المعتقلين الا الحاكم الرعديد، فنزلوا بالسجناء إلى أسفل، في العراء المحروق بالشمس بين الروابي الرمادية العارية.

ثم جاء الفرنسيس بعد تراجع الطليان إلى السواحل في الشمال، وقرروا أن يقولوا كلمتهم بشأن المعتقلات، نفوا أن يوجد في الأرض من يستطيع أن ينافسهم في معرفة نوايا أهل الصحراء لأن خبرتهم في مقـاومة هؤلاء المردة الأشباح لها تاريخ وتقاليد. قالوا إن الطليان أغبياء اذ تركوا قضبان

الحبس مفتوحة على الروابي والصحراء. أما الأتراك فأغبى حتى من الطليان اذ أقاموا السجن فوق المرتفع لأن الرّحل طينة فريدة من البشر، لا يهمّها أن تودع في زنزانة داخل قلعة، أو تحشر في جدران معتقل وراء قضبان الحديد طالما بوسع السجين أن يتمتع بالسراب والشمس والعراء. إنهم أحرار، طلقاء، طالما تمكنوا من مشاهدة معشوقتهم الأبدية: الصحراء! قرروا تعديل الأمر على طريقتهم: بأقل الجهد بأتفه التكاليف. فرضوا على السجناء أن يبنوا سوراً عالياً، طوقوا به القضبان وحجبوا العراء الممتد إلى الأبد عن السجناء الأشقياء. أصبح السجناء الآن أشقياء حقاً. حتى أن الكثيرين منهم ماتوا بأمراض مجهولة حسب روايات تناقلها الأهالي.

أما الملك فكان أول من اخترع الأسلاك الشائكة. نشرها في كتل كثيبة على طول السور، ونصب عسساً على رأس كل ربوة، مما ضاعف من شقاء السجناء فازدادت بينهم الوفيات الخفية.

٢ ـ الخروج

في المدخل، أمام باب مغلق من ضلفتين حديديتين موحشتين، جلس عسّاس كسول، مفتول الشاربين، يلوك التبغ الطازج، ويبصق اللعاب المعتم جانباً على كوم الرمل. يتسابق الذباب ويغير على البصقة في أسراب كثيفة، عنيدة، كأنه يترصّد ويتحيّن الوقت للانقضاض على اللعاب الممزوج بالتبغ. وكلّما أغار الذباب على اللعاب، استلقى العساس الكسول ودفع بظهره مسند الكرسي القديم المغروس في التراب إلى الوراء، ومد يده العجفاء، الطويلة، ليهيل التراب على البصقة ويحرم الذباب من المتعة.

تنادى الحراس على الربوتين المتواجهتين. تبادلوا عبارات المزاح، والضحك، ثم تنابزوا بألقاب بذيئة.

ارتفع القرص الشيطاني، تنفست السماء بالنار. حلّ الأصيل.

أقبلت سيارة لاندروفر، خرجت من الطريق المعبد المتجه إلى القلعة، سارت ببطء عبر الطريق المترب، تجرّ ذيلاً كثيفاً من الغبار، توقفت بجوار مستعمرة القمامة. مضى وقت طويل قبل أن ينزل رجل طويل، يميل إلى البدانة، معمم، يرتدي جبّة باهتة، مشى باتجاه المدخل بخطوات كسلى. استفزّ الكلاب الضالّة الثلاثة فهاجمته بالنباح. تجاهلها، فعادت إلى مستعمرة القمامة لترتع في العفن.

توقف على بعد خطوات من العسّاس. رفع يده ولوّح بالتحية. قال بصوت مكتوم:

ـ السلام عليكم.

ولكن العساس لم يرد. استمرّ يتسلّى بالبصاق والذباب.

في الجانب الآخر، الداخلي، من الباب الحديدي الموحش فرغ السجّان من تدوين الملاحظات في سجل ضخم، سميك، يعلوه الغبار. كان شاحباً ممصوص الوجنتين، يسكن الحزن مقلتيه، حزن نبيل لا يليق بحرفته الوحشية.

خارج الحجرة المعتمة، حيث انهمك السجّان الكئيب في تدوين الملاحظات، وقف سجين بائس، حاسر الرأس. يرتدي أسمالاً باهتة، يتلفت حوله، ويهشّ الذباب العنيد في حيرة.

فرغ السجان من التدوين، فوقف وقدّم له كيساً منفوشاً، ممهوراً بشعار «المصالح المشتركة»، وطلب منه أن يوقع بالاستلام. رأى نظرة شقيّة في عيني السجين، فسحب القلم، ودفع إليه بالمحبرة. قال بلغة لا تناسب الحزن النبيل في عينيه:

ـ ابصم!

هجم على السجين، وأمسك بمعصمه، لوّث إبهامه بالحبر، ولطّخ الورقة الناصعة في السجل بالبصمة. أشار إلى الباحة، وقال آمراً:

ـ تستطيع أن ترتدي لباسك هناك.

لم يتحرّك السجين، وقف ممسكاً بالكيس المنفوش، ينهش الذباب وجهه المحروق بالشمس، وينكس رأسه الحليق.

عاود السجّان أمره:

ـ لا تضيّع الوقت. في الخارج ينتظر قريبك. انزع لباسنا والبس لباسك. وربنا يجعلنا نلتقي في ساعة خير.

ابتسم السجين وخرج إلى الساحة. بدأ ينزع الأسمال بجوار الجدار حيث انحسر الظل وتدفقت أشعة شمس الأصيل.

لبس الثوب الأبيض الفضفاض وارتدى العمامة. بدا بلثامه مهيباً، منفوشاً، كالطاووس. قبع مسنداً ظهره إلى الجدار يحدّق في الشمس القاسية. صاح السجّان:

ـ في الخارج ثمة من ينتظرك أم أنك تفضل البقاء معنا؟

أعقب ملاحظته بضحكة قصيرة، فاختفى الحزن النبيل من عينيه. تكلّم السجين لأول مرة:

ـ قل لي بالله. هل حقاً ما يقال؟

ـ ماذا يُقال؟

ـ . . إن السجن في الزمان القديم كان مفتوحاً على الصحراء. دون أسوار ودون. . .

رمقه السجان بفضول. عاد الحزن إلى عينيه. مشى خطوات فوق

الأرض المفروشة بطبقة من الحصى، اشتكت بأنين موسيقي بسبب قساوة حذائه الضخم. تمتم كأنه يحدّث نفسه:

ـ في الخارج يوجد من ينتظرك. .

٣ ـ الطاعون

عبرت «اللاندروفر» الطريق الترابي المحفور بالأخاديد والغضون في قفزات عنيفة. ارتفعت زوبعة غبار كثيفة. طوقت السيارة وحجبت الرؤية. دخلت الطريق المعبّد فانحرفت إلى اليمين وانسابت بحرية. اجتازت احراش نخيل استلقت على جانبي الطريق.

دخلت المدينة. على جانبي الطريق انتشرت الدكاكين ومحطات البنزين وامتدت بيوت انيقة تطل من أسوارها أشجار ونباتات عالية. بعض النباتات متوج بورود كبيرة الحجم، مختلفة الألوان. على الأرضية تراكض الباعة الجوالون والأطفال ورجال مهمومون، جادّون، وجوههم صارمة، توحي بأنهم مقبلون على إنجاز الأعمال المجيدة. أمام الدكاكين قبع الكسالى والباحثون عن عمل على رؤوس أصابعهم، مستندين بظهورهم إلى الجدران. بعضهم انشغل بمقاومة الذباب، والبعض الآخر عدّل من وضع العمامة لاتقاء شرّ الشمس.

أفضى الاسفلت إلى طريق محفور في حقل من الطين الناصع. ارتفعت سحب الغبار المسموم وطوّقت السيارة. نزلت الذرات الجيرية على الزجاج الأمامي وحجبت الرؤية. تسللت إلى الداخل وغزت انفيهما فعطس السائق بصوت عال، ثم تبعه رفيقه أيضاً. دخلا شوارع متعرجة كئيبة، متربة، يغزوها الذباب والغبار، محصنة من الجانبين بصفوف من بيوت الطين. في البيوت يتهارج الأطفال وتتنابز النسوة بالألقاب. أفضى الحي إلى عراء «زلاّف» الرملي. في الأفق، في الجانب الغربي، تبدّت أحراش الحقول

المهملة، ورؤوس نخلات ترتفع في كبرياء، تتوغل في التلال الرملية، تسبح في أمواج السراب الأبدي. على شاطىء الرمل، في الحدّ الفاصل بين الواحة والصحراء، وقف بيت وحيد، متساوي الأضلاع. توجت زواياه الأربع بمثلثات «تانيت» فيبدو من بعيد مثل ضريح بونيقي.

حشا مقدمة اللاندروفر في ربوة رملية تكاد تسد باب البيت. كان الباب الخارجي مفتوحاً. دخل الى البيت ومكث الضيف في السيارة. مكث بالداخل لحظات ثم عاد ودعاه إلى الدخول. عبرا باحة مغطاة بفراش رملي وثير وقاده إلى المربوعة: غرفة مستطيلة، معتمة، تواجه المدخل الخارجي. في الجدار الشمالي نافذة صغيرة عالية، مغلقة. جدران الحجرة عارية، مطلية بالجير الناصع، وأرضيتها مفروشة بكليم رقيق مخطط بألوان باهتة. في صدر الجدار العريض تألق قفص فضّي فريد على هيئة كوخ معلّق في مسمار صدىء، خشن، في حجم لا يناسب رقة القفص. قضبان القفص مضفورة في ثنايا دقيقة تومض كلما انعكست عليها خيوط الضوء المنبعثة من شقوق النافذة الخشبية. في الجانب المواجه استقرّ قفل صغير من النحاس. داخل القفص رقد طائر مدهش، فضي أيضاً، في حجم العصفور. منقاره صغير، موسوم بخطوط داكنة، متعرجة. عيناه مغمضتان، في حين أخرج منقاره المخطط من فتحات القفص. استرخى على الجناح الأيمن في حين فرد جناحه الآخر فتبدّت الزركشة الفضية المدهشة. لم ير طائراً فضيّاً قبل اليوم. لاحظ «بركة» تعلقه بالقفص فابتسم، ثم مدّ يده وتناوله من حلقه جانبية. لم يفق الطائر. توجه إلى الباب ولوّح بالقفص تحت الضوء. انعكست اشعة الشمس على الريش فرفرف الطائر بجناحيه وعادت اليه الحياة. تمطّى وفرد جناحيه في استعراض. لمع الريش ببريق حاد.. بريق أقسى من انعكاس الشمس على قطعة زجاج في القيلولة. أشاح «موخامّد» بوجهه وأغمض عينيه. ضحك بركة وعاد بالقفص الى الجدار. قال:

ـ هل رأيت طائراً كهذا من قبل؟

اضاف دون أن ينتظر الجواب:

ـ حصلت عليه من تجار القوافل. إنه هديتي إلى مدير البوليس.

تكلّم موخامّد:

ـ لم أره. هذا ليس من طيور الصحراء.

ـ هل تدري أين يعيش؟

أضاف دون أن ينتظر جوابه كعادته:

ـ في الخلاء والأدغال. يقضي النهار في الصحراء، تحت الشمس. يعمي الصقور بوميضه فتعجز عن صيده، وينزل إلى الأدغال في العتمة ليصطاد الحشرات. يحتمي بالصحراء من الأعداء ويتعيش من خيرات الغابة. ليس جميلاً فقط كما ترى ولكن سلوكه ينم عن الذكاء أيضاً.

نهض موخامّد وتقدّم من القفص. هجع الطائر وعاد الى وضع الاسترخاء. قال موخامّد غائباً:

ـ لم أره في الصحراء أبداً.

ـ لا يعيش في صحارينا. يستوطن الصحاري المتاخمة للأدغال.

أخرج علبة التبغ من جيبه. ألقى بحفنة في فمه وأضاف:

ـ انه مفاجأه. أنت لا تتصوّر كم سيفرح مدير البوليس. إنه من بقايا أسرة القره ماللي، ويهوى جمع الطيور. صدّع رؤوس الناس منذ أن سمع بوجوده ولكن لم يستطع أحد أن يحصل عليه قبلي. اشتريته بمبلغ خيالي من تاجر تباوي جاء به من «كانو». لم يسمع طبعاً بلهفة مدير البوليس للحصول عليه وإلّا لابتزني.

بصق لعاب التبغ في علبة طماطم فارغة وضعت على حافة النافذة خصيصاً لهذا الغرض. قال وهو يتابع ضيفه المنشغل بمراقبة الطائر:

ـ مساكين هؤلاء الحكام. انهم يبحثون عن العاب للتسلية كالأطفال.

استمرّ موخامّد يتفقد الجدار، فلم يعرف بركة ما إذا كان يتفحص الطائر أم القفص. في عينيه أيضاً فضول طفولي. في عينيه بريق. هل هو سعيد؟

قال بركة:

ـ هنا لا تستقيم الأمور اذا لم تفعل مثل هذا. أقصد اذا لم تبحث للحكام عن العابهم.

لم يعلّق الضيف. رأى أن الوميض في عينيه يزداد تألقاً. منذ قليل كان محطماً. عيناه مطفأتان، متجهمتان. هل هذا الألق هو ما يسمونه السعادة؟ هل استطاع الطائر الفضي أن يزرع الفرحة في قلب السجين؟

قال بركة في نفسه: «لا. ليس الحكام وحدهم يشبهون الأطفال. بل ربما لا يشبهون الأطفال اطلاقاً، ولكن السجناء والغرباء. أولئك الذي اضطروا أن يتغربوا عن أوطانهم هم فقط يتمتعون بهذه الروح الطفولية المدهشة.. مزيج من السذاجة والبراءة والدهشة والحزن والحنين الى المجهول. السجناء والغرباء يموتون اطفالاً».

استفسر الضيف بسذاجة:

ـ هل طيور القره ماناللي في اقفاص؟

استنكر بركة:

ـ وهل يترك الطائر حرّاً؟

ثم استدرك وهو يعيد العلبة الى حافة النافذة:

ـ طبعاً في اقفاص اخرى. هذا قفص خاص كما ترى. أعدّه حدّادة

«كانو» خصيصاً لهذا الطائر. القفص النادر للطائر النادر. مصنوع كله من الفضّة. نوع خاص من الفضّة.

وخرج من المربوعة.

من الغرف الداخلية فاحت رائحة بصل مقلي.

تعالى هرج الأطفال.

٤ ـ المنفى

بركة من اوائل الرّحل الذين هاجروا الى الواحات. هرب من الظلمات وجاء الى الواحات بحثاً عن الخلاص من الأشباح الماردة التي تطارده في الليالي الظلماء.

هؤلاء العمالقة حيروا العرافين والفقهاء.

عرّاف النجع كان أول من اعترف بالعجز وسلّم السلاح. ودّع القبيلة والتحق بقافلة متجهة إلى أغاديس. وقيل إنه قام بالمستحيل في سبيل صدّ «زوّار الليل» عن بركة المسكين. في الأيام الأولى التي تعرض فيها للاعتداء نجح العرّاف في تخفيف الإصابة. حرر له عقداً كاملاً من التعاويذ، حصّنها في قطع الجلد وعلقها في رقبة المريض. ثم طرد الإنس من الخيمة وأشعل موقداً فخماً وسهر على رأسه حتى الصباح. قال الفضوليون إنه لم يتوقف عن قراءة تراتيله السحرية بلغة «الهوسا».

مضت أيام شعر فيها بركة بالتحسن. التحق بالمراعي واعتنى بقطعان الابل. ولكن أهل الخفاء اختلوا به في هذه الرحلة واعتدوا عليه بالضرب. وجده الرعاة بعد يومين غائباً عن الوعي في وادي السدر. اضطر العرّاف الزنجي العجوز أن يسهر على رأسه مرّة أخرى.

في الصباح عاد الوعي للمريض فسأله العرّاف أن يروي له ماذا فعل في

الأيام التي سبقت العدوان. فكر بركة طويلاً دون أن يتذكر أنه فعل شيئاً يمكن أن يستحق عليه هذا العذاب. هزّ رأسه بالنفي فألح العجوز:

ـ تذكر. حاول. الراعي في الخلاء لا يكف عن العمل. إنه يقوم بأعمال خطيرة دون أن يدري.

ـ جلبت الحطب و.. أشعلت النار. عجنت الدقيق وصنعت خبز الملّال.

ـ هل هذا كل شيء؟

ـ في الصباح قتلت أفعى.

بدا الفضول على وجه العجوز. عقد حاجبيه، وقال:

ـ في الصباح أم في المساء؟ تذكّر جيداً.

ـ في الصباح. قبيل الأصيل.

ـ أحم. هل قطعت رأسها؟

ـ لا.

ـ أحم. هذا خطأ كبير. استهتار بالتعاليم. ألم تزرك في المنام؟

ـ لا. و.. قتلت أيضاً. أقصد قبلها بيومين اصطدت غزالة.

ـ غزالة؟

ـ نعم.

ـ هل وجدت في أحشائها جنيناً؟

ـ لا.

ـ ما شكلها؟

ـ غزالة ككل غزالة. سمينة. لحمها شهيّ.

ـ متى حدث ذلك؟

ـ قبل المرض بـ.. ثلاثة أيام بالضبط. أصبتها في عشية الجمعة وضربني العمالقة ليلة الاثنين.

هبّ العرّاف:

ـ ماذا؟ هل قلت إنك أصبتها في العشية؟

ـ نعم. عند الغسق. قبيل الغروب.

طوّق العجوز رأسه المعمم بكلتا يديه. وتمايل يميناً ويساراً وهو يردد:

ـ لا حول الله. من يصيد الغزلان عند الغسق؟ كأنك نزلت من القمر. كأنك لم تولد في الصحراء. تقتل أفعى ولا تفصل رأسها. تصطاد الغزلان في الغسق!

في الليل قاد المفاوضات مع أهل الخفاء.

في الصباح قال لبركة:

ـ أمامك طريق واحد للشفاء.

تمتم بركة في لهفة:

ـ ما هو؟

قال العرّاف ببرود:

ـ المنفى.

ـ المنفى؟!

ـ نعم. شرطهم أن تهجر الصحراء الى الأبد. لن يتساهلوا مع قاتل.

ساد الصمت. قال المريض:

ـ لا أعرف حياة أخرى غير حياة الصحراء.

ـ أنت لا تعرف حياة الصحراء أيضاً ما دمت تسمح لنفسك بقتل الغزلان في الغسق.

لم يعلّق بركة، فاقترح العرّاف:

ـ تغرّب. أرض الله واسعة.

ـ الغربة قاسية.

ـ من يستهتر بقوانين الصحراء لا بد أن يدفع الثمن قاسياً. المنفى أرخص ثمن. أعتبر تساهلهم معك نجاحاً لي.

بركة لم يقتنع. اضطر العرّاف أن يتخلّى عن مساندته.

رحل العرّاف الى «أغاديس» ولجأ بركة الى الفقيه.

الفقيه تولّى المهمّة بحماس أدهش الرّحل. الكثيرون أرجعوا هذا الحماس الى الصراع القديم الدائر بين المنهجين: الوثني والقرآني في طرد الأرواح الشريرة. فرأى الفقيه في انسحاب الزنجي الوثني هزيمة لمنهجه وفرصة له كي يثبت قدرة القرآن على قهر الجنّ. ونقل عنه انه قال لمريديه إن عدوان أهل الظلمات على بركة ضربة سماوية موجهة للإطاحة بأمجاد العرّاف المجوسي وسوف يأتيه الفرج بمجرّد أن يغرب الزنجي المشؤوم عن النجع.

ولكن الفرج لم يأت.

بل إن أهل الخفاء فتحوا على الفقيه حرباً أشرس. رجموه بالأحجار وأضرموا النار في خيمته. أحرقوا كتبه وأمتعته ولاحقوه باللكمات وهو يركض بين المضارب باحثاً عن مأوى. سخر منه الأطفال، وكتم أنصار

العرّاف شماتتهم. وفي الليل سمع هاتفاً: «الصحراء وطننا. ومن أراد أن يعيش بيننا فعليه أن يحترم قوانيننا. موكّلك صرع امرأة فاضلة وأنت تترافع عنه وترهبنا بدل أن تحمله على الهجرة».

قضى الفقيه الليل يهذي. أحاط به العقلاء وتمتموا بما يحفظونه من آيات، ولكنه في الصباح مات. استولى الخوف على بركة، فخرج من الصحراء قبل أن يتماثل للشفاء. أقام في «آدرار» في السنوات الأولى. ثم تركها واستقرّ في «الجوهرة» بعد انكسار الطليان وانسحابهم الى السواحل. في «آدرار» خدم في الزراعة ثلاث سنوات، وفي «الجوهرة» تطاول في البنيان خلال الشهور الأولى. ثم اهتدى الى التجار فعمل معاوناً لصاحب دكّان عجوز مريض، يشكو من آلام لا حصر لها. فوجد بركة نفسه مضطراً الى أن يبتاع له المراهم والأعشاب من العطارين المرافقين للقوافل التجارية الى جانب عمله في تسويق بضاعة الدكّان. فاز بثقة العجوز فزوّجه ابنته الوحيدة برغم وجود أبناء عمومة ثلاثة يتنافسون على قلبها. الشيخ حسم الأمر وقال: «أعطيها لغريب كريم ولا أعطيها لقريب لئيم». والإشارة هنا تومىء الى خطة قديمة أعدّها الأشقاء الأشقياء سرّاً للاستيلاء على المتجر بعد أن أنفقوا ثروة أبيهم المرحوم في خمارة الواحة. أبوهم يتقاسم الدكان مع العجوز. نشب بينهم الخلاف فاستقل والدهم وانفصل بدكانه. ولكنه ابتلى بأولاد خائبين سكروا بالدكان بعد وفاته وتربصوا للفوز بابنة العم كي يضمنوا مصاريف الخمارة. الأشقاء الثلاثة يُشاهَدون في آخر الليل عائدين من الحانة، يتعانقون، يتصايحون، يرفعون أصواتهم بأغاني المرزكاوي ويتندرون على عابري السبيل. وعندما أفلتت منهم ابنة العم شمت بهم الناس وعيّرهم الصبيان واللؤماء.

نفس اللؤماء أشادوا بشطارة بركة وأشاعوا في الواحة أنه حقق هدفه الخفي الذي جاء به من الصحراء ليستولي على ثروة العجوز. قالوا إنه يتعامل مع السحرة الزنوج وهم الذين أرشدوه الى الكنز المدفون في دكان

الشيخ المريض. بعد أيام من انتشار الشائعة توفي العجوز فوجد هؤلاء الحسّاد الدعم لروايتهم وتجاسر بعضهم وقالوا إنه استغل ثقة العجوز المسكين فدسّ له سمّاً بطيء المفعول في الأدوية المشبوهة التي دأب على تدبيرها من العطارين العابرين.

لم يمض شهر على وفاة الشيخ عندما شب الحريق في الدكان. وبرغم أن الفاعل الحقيقي لم يخف على أحد في الواحة إلّا أن بركة رفض في مركز البوليس أن يتهم أحداً وقال ان ليس له أعداء.

كيف يجسر على اتهام الناس من يشك في قيام أهل الظلمات بالتخريب؟

لم يصرّح بشكوكه حتى لزوجته. دسّ في البيت ما استطاع الناس ان ينقذوه من البضاعة، وذهب الى الخلاء ليلقي بالتهمة في وجه أهل الخفاء. كان على يقين أنهم خانوا الوعد ولاحقوه بالنار الى الواحة.

في الليل زاره العرّاف العجوز. استنكر التهمة وعنفه على سوء الظن. قال بلغة واضحة: «حكموا عليك بالمنفى ولم يخونوا العهد ويلاحقوك أبداً». في الصباح توجه الى المركز وأخبر الضابط أن أبناء عم زوجته هم الذين أحرقوا الدكّان. اعترف أصغرهم تحت تأثير الخمر.

بركة عاد الى خلاء «زلّاف» ليتذكّر الصحراء. الحريق أيقظ حنينه الى الفردوس الضائع فغنى المواويل الحزينة عن الوحدة والمنفى وبكى كالطفل بصوت عال.

لم يعرف أن السماء قد أشعلت في الصحراء حريقاً آخر.

٥ ـ الجدب

مع الغروب تخبو جذوة النار. يعتلي الروابي العارية ويتفقد النوق في الأفق. تزحف العتمة فيرفع صوته بالمواويل الصحراوية الحزينة. في مواويل المساء دائماً لوعة شجية وحنين خفي الى الفردوس الصحراوي المفقود.. فردوس لا تمل العجائز من التحدث عنه في أساطيرهن الشيقة، عندما كانت الصحاري جنائن خضراء، تجري عبرها السيول، وتتوالد فيها الحيوانات والوحوش والطيور.

كل طفل في الصحراء سمع القصص الخرافية عن هذا النعيم. موخامّد أيضاً سمعها عشرات المرّات. رآها في احلامه مئات المرات، ومات شوقاً لرؤيتها مرة واحدة. مات شوقاً، مثله مثل بقية الشباب من جيله، كي تتحقق الأعجوبة ويشاهد سيلاً يسيل مرة واحدة قبل أن يموت.

ولكن الجفاف يتمادى، والسماء بخلت حتى بتلك الأمطار الشحيحة التي تعودت أن تجود بها في الشتاء. وكلما ازداد الحريق في قلبه واشتد حنينه الى الجنّة القديمة ازدادت السماء بخلاً بالماء، وندرت في الحمادة الأمطار.

في النهاية سلطت السماء قصاصاً على الرّحل أقسى من الجنّ، فعم الجدب. هلكت قطعان المواشي، وسادت المجاعة. هاجر الكثيرون الى الواحات، ولجأ فريق آخر الى البلدان البعيدة وتوغل في الأدغال.

وقامت عشائر أخرى عنيدة، معروفة بعشقها لأغاني الحزن وعبادة الوطن، بحبس نفسها داخل المضارب حتى أفناها الجوع واندثرت. عن هذا العناد المقدس ألّف موخامّد أشعاره على الروابي العارية، وغنّاها بصوته الحزين الذي يتمتع بصفاء المهاجرين الوحيدين، الأبديين، المنفيين، الحالمين بفردوسهم المجهول. أهل الصحراء كلهم ورثوا

الحنين الى هذا الأمل عن آلاف الأجداد. كلهم يدفنون سرّهم في أغانيهم السحرية حتى ينتهي رأس الخيط الى مسيرة الشقاء التي بدأها سيدنا آدم ـ الجدّ الأوّل.

المنفيّ الأوّل. الشقيّ الأوّل.

انزلق آخر بصيص ضوء وابتلعته العتمات في الأفق. في الشرق ولد نور آخر وبدّد الظلمات قمر صاف، كبير. أقبل شبح راجل يجرّ جملاً بائساً، فنزل موخامد الربوة لاستقباله. الشيخ أمغار. الشيخ صبر على مصاب الصحراء فكان آخر من هجر الحمادة بحثاً عن الخلاص. أناخ الجمل الأعجف فوثب موخامّد وأزاح عنه الأثقال. قال الشيخ وهو يتقرفص تحت الربوة في مواجهة القمر الكبير:

ـ تعال نتسامر. حضّر الشاي. اذا أراد الله ان يساوي بين الشيخ والراعي، الحاكم والمحكوم، أنزل على الناس مصيبة. في البلاء يتساوى الجميع. لا فرق بيني وبينك الآن.

ثم ابتسم بحزن.

الشيخ أمغار مشهور بمرحه وحبّه للفرح والنكات. نوادره ودعاباته معروفة بين أهل الصحراء. وهذا الانطباع جعل موخامّد يشعر بالقلق عندما رأى الحزن في عينيه.

كوّم موخامّد الحطب وأشعل النار في حين حاول الشيخ أن يستعيد مرحه القديم:

ـ لم أعد زعيماً الآن. هل رأيت زعيماً بدون قبيلة؟ هل تكون راعياً بدون ماشية أو إبل؟ هذا حالي الآن. فرّت العشائر وهجرني حتى أولادي وبقيت وحدي في الخلاء، بين الحجارة الصمّاء. لا أجد حرجاً في أن أجالس الرعاة وأشرب معهم الشاي. ها.. ها..

ضحكته صادقة. نجح في أن يحبس حزنه. انحسر قناعه عن لحيته الكثيفة. كانت بيضاء كالحليب.

قال موخامد:

ـ لم أسمع أنك وجدت حرجاً في ذلك حتى عندما كنت زعيماً تحيط بك الحاشية والأعوان.

ـ أنت راعٍ نبيل. النبلاء فقط يعزون الشيوخ ويشدّون أزر الزعيم المهجور.

تضاحك مرة أخرى. فرك يديه النحيلتين واستمر:

ـ ولكن أعترف لك بأني سعيد ببلوتي. هل تعرف أن في البلاء أيضاً خلاصاً؟ لم أظن في الماضي أن وزر القبيلة فادح الى هذا الحدّ. سلسلة طولها سبعون ذراعاً تلتف حول رقبتي. أنا الآن خفيف، ريشة في الهواء، حرّ مثلك.

قرأ موخامّد في وجهه تعبيراً مدهشاً. بريقٌ ومض في وجهه وفاض من عينيه تحت ضوء القمر البهيج. البريق ذكّره بوجوه شيوخ الطريقة القادرية الجوّالين. هل هذا التعبير الغامض هو السعادة؟ هل هو الحرية؟ لا شك أنه كلاهما معاً لأن العقلاء يقولون إن الإنسان لا يكون سعيداً في قلبه إلا إذا كان حرّاً في جسده.

بدأ موخامّد يخلط الشاي. سأل الشيخ:

ـ من أين تأتي بزادك من الماء: من عوينة ونين أم من وادي الجعيفري؟

ـ من عوينة ونين.

ـ ألم تلاحظ تقهقر الماء في البئر؟

ـ ستة أشبار. نزل مستواه ستة أشبار كاملة.

ـ أرأيت؟

ثم صمت فجأة. ساد سكون الأبدية. طقطق الحطب في النار الخابئة. عاد الشيخ يقول:

ـ الحق أني لم أمرّ عليك كي نتسلّى بالثرثرة. جئت كي أحذرك من تراجع المياه في كل الآبار. الخبراء يتوقعون سنوات جدب أسوأ. الصحراء ستعاني من بلاء حتى في ماء الشرب. أنصحك أن تهاجر.

ـ ليس لدي مكان أذهب اليه. لا أعرف وطناً غير الصحراء.

عاد سكون الأبدية الى السيادة. ارتفع القمر البهيج فسكب دفقة جديدة من الضوء. الروابي الغربية الكئيبة بدت كـالأشباح في الضـوء الفضي. استلقى العراء وامتد الى الجهات الأربع.

احتضن الشيخ ركبتيه النحيلتين كما يفعل الأطفال. يمم صوب القمر وقال:

ـ يبدو أني لا أستطيع أن أنسى مهنتي القديمة كشيخ للقبيلة. أردت أن أقول إني جئت خصيصاً كي أخبرك بوجود قريب هاجر الى الواحات منذ مدة طويلة. كان مريضاً مطارداً من الأرواح الخفيّة فاضطر أن يرحل قبلنا ويسبقنا الى هناك. بركة. اسمه بركة. هل حدّثك عنه أحد من قبل؟

ـ أذكر أن «غوما» حدثني عنه قبل أن يرحل الى تمبكتو.

ـ أرى أن تلحق به. إنه أقرب الأقارب إليك. هو ابن خالة المرحومة أمّك. بمثابة الخال. كلنا نهاجر ونتغرّب ونضيع سواء بسبب الجـدب أو بسبب الحرب، ولكننا لا بد أن نرجع ونبحث عن الخال في النهاية. هذا قانون ورثناه عن ألف جد.

ـ ما دام هو الذي هاجر فهو الذي يجب عليه أن يعود. الصحراء هي الأصل.

ـ معك حق. ولكن الخال أيضاً أصل. حيثما يوجد الخال فهناك يتوجه ابن الأخت. صلة الدم أقوى.

ـ كنت أظن أن الصحراء أقوى.

ـ مبرراته أقوى. لم يهاجر طلباً للمال. روح الصحراء طردته. أقصد أن أهل الصحراء الأصليين هم الذين قرروا له المنفى.

قدّم له كأساً متوجة بطربوش كثيف من الرغوة. اختفى الـطربوش في رشفة واحدة. غرس الكأس في التراب. رفع رأسه الى القمر مرة أخرى. قال:

ـ أنت أيضاً ترحل غَضْباً. من منّا يهجر الصحراء راضياً؟ كلنا منفيون. أنا نفسي لم أتحرّك إلّا بعدما يئست وأصبحت مهدداً بالعطش.

ثم.. ترك للسكون الفرصة كي يتكلّم. سكت كي تقول الصحراء ما لم يقله. شيوخ الصحراء دائماً يقولون كلاماً أقل مما يجب أن يقال. يروق لهم أن يفوضوا السماء والفراغ والعراء والتلال والسكون كي تتحدث باسمهم كأنهم يخشون ذلك الكلام الذي لم يقولوه.

سافر في الفجر. لم يسمح لموخامّد أن يشيعه. جرّ جمله البائس واتجه الى الجنوب نحو بحر الرمال العظيم.

ترك للصحراء فرصة إقناع الراعي.

ولكن موخامّد لم يقتنع إلا بعد أن شاهد بعينيه كيف تموت النوق.

في السنوات الأولى تغذت على الأعشاب الصبورة المعـروفة بقـدرتها على مقاومة الجفاف مثل النباتات الشوكية وأشجار السدر، ثم جفّت هذه الأشجار أيضاً مع استمرار الجدب، فلم يبق للنوق إلّا أن تأكل الأحجار. كان يطاردها في السهول العـارية ويعبـر بها الأوديـة القاحلة حيث تتنـاثر

الشجيرات البريّة البائسة التي حوّلها العطش الى أكوام من الحطب. راقبها وهي تمضغ الأعواد اليابسة بحثاً عن الرطوبة والغذاء، ثم تقذفها مع كتل ناصعة من الزبد وترفع عيوناً وديعة حزينة الى الأفق حيث تلتحم الأرض بالسماء. تمكث زمناً طويلاً في ملاحقة الأفق كأنها تشكو بلواها الى المجهول.

ثم جاءت المرحلة الأخيرة فأكلت نفسها. تغذت على السنامات التي ربتها سنوات الرحمة. ولم تمض شهور حتى استوت ظهور النوق وتلاشت السنامات نهائياً.

ورغم ذلك لم تأكل الأحجار.

بدأت تموت واحدة بعد أخرى. آخر ناقة صمدت طويلاً. بقيت أسابيع. ضمر جسمها وهزل. نحلت سيقانها وبرزت عظامها حتى عجز موخامّد عن مشاهدة هذا الهيكل المتنقل. حمل زمزمية الماء ومزود التمر وهرب.

دخل «آدرار» ليلاً. نام على التلال الرملية المشرفة على الواحة. في الصباح نزل وذهب الى السوق. هناك قادوه الى الشيخ «الجارف» فأخبره أن قريبه ترك «آدرار» منذ سنوات وهاجر الى «الجوهرة».

أمضى أياماً قبل أن يشفق عليه تاجر من الشمال ويحمله في سيارة شحن الى الجوهرة. قضى ليلة في الجامع. بجوار المنبر، على حصير قديم، رابط شيخ جليل قال إنه من أتباع الطريقة القادرية. أطعمه من خبز النذور والصدقات الذي أتى به الأهالي، وحدثه طوال الليل عن الميلاد والموت والمنفى وغدر الزمان. قال إن نعيم الإنسان في الرحم، وإذا رضي وخرج من رحم الأم فعليه أن يصبر ويتحمّل. ثم تحدث طويلاً عن الجدب وانتهى الى أن ألقى في وجهه بسؤال مدهش لم يفهمه: «ماذا تظن: ما هي الحياة إن لم تكن صحراء؟ والجدب؟ هل تظن أنك الوحيد الذي يعاني من

الجدب؟ كل الناس تعاني من هذا البلاء؟».

هرب من الجامع قبل الشروق، وذهب الى السوق المجاورة. فضاء واسع محاط بسور مبني بخليط من الحجارة والحصى والطين الأحمر. تحت الجدران زحفت كثبان الرمال وتسلقت السور في بعض الأجزاء إلى منتصفه. في الخارج تزاحمت قوافل كاملة من الجمال. بعضها تحرر من الاثقال وبرك على الأرض ليجتر وينعم بالراحة، وطائفة أخرى وصلت للتو فوقفت محملة بالبضائع تنتظر في صبر أن يرحمها أصحابها ويزيحوا عنها عبئاً يكاد يصبح جزءاً من جسمها من طول ما حملته عبر الصحراء. هنا يتلاقى التجار القادمون من الشمال بالقوافل العائدة من أعماق القارة. استمرّ بعضهم مخلصاً لأعرق تقليد فيستخدم سفينة الصحراء القديمة، وبعضهم شاء أن يساير الحضارة فاستبدل الجمل بسيارات الشحن الكبيرة من دون أن تفلح هذه «الغيلان الحديثة» في منافسة الوسيلة القديمة.

داخل السور انحشر الخلق وشاهد القيامة. تنادى الباعة وروجوا لبضائعهم. تهارج الوافدون مع أهل الواحة في مساومات حامية. تعالى صياح الماعز وفاحت روائح الطيب والفلفل والقرنفل والبخور وامتزجت برائحة التيوس والروث. شعر بالدوار، فخرج من السوق. في الخارج استفسر من عابري السبيل عن دكان قريبه بركة فادعوا جميعاً أنهم من الوافدين. قبع تحت السور، بين ربوتين من الرمال، ورفع رأسه نحو شمس الأصيل. استمر المارة يتوافدون الى السوق. في الناحية الأخرى، غرب السوق، امتد طريق معبّد اصطفت على جانبيه دكاكين الواحة. تحت الأبنية تناثرت القمامة، وفاح العفن والبول. في ظلال الجدران تناطح ثلاثة فتيان برؤوسهم وانخرطوا في حديث شيق. أطولهم قامة يلف رأسه بزمالة بيضاء باهتة في حين لف الآخران قطع القماش على رقبتيهما. استمرّوا يتحدثون ملتصقي الأجساد والرؤوس. يتقاربون حتى تتلامس رؤوسهم، ثم يتباعدون خطوات ويميلون برؤوسهم الى الوراء عندما يضحكون. ثم انفصلوا. ابتعد

المزمّل واتجه صوب السوق فاعترضه موخامّد كي يسأله عن الدكان. تأمله لحظات. في نظرته وميض غريب. على خديه آثار حروق قديمة، أو ربما كيّ نار ملتئم. يضغط على أسنانه بقساوة لا معنى لها. في النهاية أجاب عن سؤاله بسؤال:

ـ هل أنت وافد جديد؟

هزّ المهاجر رأسه بالإيجاب، فعاد الفتى يصرّ على أسنانه بعصبية. سكت طويلاً حتى يئس موخامّد من الحصول على جواب. ثم ابتسم فجأة وقال:

ـ تعال معي.

عبر به الفناء الترابي الفاصل بين السوق وطريق السيارات ثم انحرف يساراً نحو الصف المقابل من الدكاكين. وقف على رصيف زحف عليه الرمل وأشار الى باب خشبي أخضر يبعد مائة خطوة. قطع موخامّد بضع خطوات، ثم التفت فرأى الفتى ما زال يقف على الرصيف ويراقبه.

الدكان مغلق.

جلس على رؤوس أصابعه، وأسند ظهره الى الجدار. لاحظ أن الشاب اختفى. انتظر حتى ارتفعت الشمس ثم عاد الى السوق ليقتل الوقت. لم يكد يعبر الساحة المتربة الواقعة بين رصيف الطريق وجدار السور حتى انتبه لهرجة. عند نهاية السور، ناحية الغرب، تكأكأ عدد من الفتيان وتعاونوا في تسديد اللكمات لفتى طويل يخفي وجهه بذراعيه محاولاً أن يحمي رأسه. في لحظة أخرى عرف الضحيّة. نفس الفتى المارد ذو العادة العصبية الذي دلّه على الدكان. راقبه وهو يتقي الضربات الوحشية دون أن يقدر على الرد. اقترب موخامد من الموقع فتبيّن وجوه الشبان الثلاثة. عرف اثنين منهما. نفس الشابين اللذين رآهما برفقة الضحية قبل قليل. أمّا الثالث فلم يره من قبل. كان وحشاً أشرس من الجميع، أسمر، مجعّد الشعر، أطولهم

قامة، يلوي على رقبته زمالة مخططة، تتدلّى الآن وتلامس الأرض. على يدي الضحية شاهد نثرات دم. اندفع نحوهم وهو يردد:

ـ العنوا الشيطان. اتقوا الله. العنوا الشيطان.

لم يستجب أحد للنداء. لم يتوقفوا عن توجيه الركلات واللكمات الى ضحيتهم. بل خيّل اليه أنهم ازدادوا وحشية في عراكهم. صاح مرة أخرى:

ـ استحوا. أنتم ثلاثة. الرجال لا يجتمعون لضرب رجل واحد!

تقدم خطوة أخرى، فتلقى لكمة على صدره. أزاح المارد الأسمر، فتلقى ضربة أخرى على منكبه الأيمن. بدأ مرجل الغضب يغلي في قلبه، فقرر أن يدافع عن الفتى وعن.. نفسه. سمع أحدهم يهدد:

ـ إمشِ من هنا. لا تتدخل. امش أحسن لك!

تلقى لكمات في أماكن مختلفة. تلقّى لكمات على وجهه أيضاً. خيّل اليه فيما بعد أن الشبان الثلاثة توقفوا عن مقاتلة رفيقهم وتفرغوا لضربه هو. أثاروا الغبار بأقدامهم، فارتفعت سحابة حجبت عنه وجوههم. كل ما يعيه بعد ذلك انشغاله بتلقي لكماتهم الوحشية. خيل اليه أن الولد المضروب أيضاً انضم اليهم واعتدى عليه. لا يدري كم استمر العراك عندما أحسّ بسائل ساخن في يده اليسرى. ثم سمع صرخة وجسماً يسقط على الأرض. هرب الشياطين، وأقبل الفضوليون. تلاشى الغبار، فرأى الفتى المارد ذا العادة العصبية مطروحاً على التراب، والدم ينزف من صدره. اكتشف أن الأشرار طيروا اللثام عن رأسه، فبحث ببصره ووجده مغموراً بالتراب. أسرع يلفه على رأسه في حين صاح أحد الفضوليين مشيراً الى يده:

ـ الدم. انظروا الدم.

تفحص اليد، فوجد جرحاً عميقاً. طعنة سكين. استمرّ الدم ينزف ويغمر ذراعه وثوبه.

جاءت سيارة البوليس، وشحنوهما الى المركز. هناك أودعوه التوقيف، وحملوا الجريح الى المستوصف لإيقاف النزيف. جاء ضابط صارم، وأمر بتفتيشه. استولوا على مديته التباوية التي كانت مثبتة طوال الوقت في معصمه الأيمن بطوق فاخر من الجلد. جلس الضابط الصارم وأخضعه لاستجواب طويل. في النهاية قال وهو يقلّب المدية التباوية بين يديه، ويختلس اليه نظرة لئيمة:

ـ هذا أخطر سلاح في الصحراء. منذ أيام قام تباوي مجرم بذبح قافلة كاملة من التجار واستولى على البضائع. ذبحهم بمدية كهذه على مشارف «مرزق».

فكّر موخامّد أن يقول له إن المدية تعويذة لا تفارق الرحل، لا لكي تستعمل في ذبح أهل القوافل وإنما لأنها تحمي من أشرار الجن وتحلل الأنعام عندما تشرف على الموت. خطر له أن يقول أيضاً إنه وجدها مثبتة، هناك، في معصمه منذ أن وعى الحياة ووجد نفسه يرعى الجديان في مراتع الحمادة، ومضى وقت طويل قبل أن يكتشف أنها تصلح لشيء آخر. في البداية كان يظن أنها تعويذة مثل التعاويذ الأخرى المعلقة على صدره. ولم يكن يظن أن في اخفائها على امتداد المعصم جريمة كما يلمح الضابط الصارم. خطر له أيضاً أن يحدثه عن البلاء وكيف رأى هياكل العظام وهي تنتقل بين الأودية الميتة، وكيف شرب كأس الشاي الأخضر مع العجوز المحطم الذي كان الى وقت قريب زعيماً مهيباً تخشاه كل الصحراء الكبرى. فكر أن يخبره بحزنه المكبوت الذي حاول مراراً أن يعبر عنه من خلال المواويل الصحراوية في الخلاء، ولكن إحساسه بأن الرجل الغاضب لن يفهمه جعله يحجم. لم يكن المانع هو الإحساس الخفي فقط وإنما ثمة سبب آخر: لم يجد الكلمات المناسبة. عجز عن اكتشاف اللغة.

في المحكمة انتظرته مفاجأة أخرى.

الولد الشقي أصرّ على أنه هو الذي تهجّم عليه وطعنه بالمدية التباوية الفظيعة. وعندما سأله القاضي الأصلع البدين عن السبب الذي يجعل البدوي يتهجم عليه، قال الفتى بلغة لئيمة:

ـ وما أدراني؟ هؤلاء البدو غريبو الأطوار. سألني عن دكان قريبه بركة فدللته على المكان. وجده مغلقاً فعاد وتهجم عليّ بالضرب. قاومت فطعنني بسلاح الشياطين. ربما ظنّ الأهبل أنني كذبت عليه. هؤلاء البدو غريبو الأطوار.

حكم عليه القاضي بتسعة أشهر.

٦ ـ القفص

جاء بركة بطبق من التمر. وضعه على الكليم وعاد الى الداخل وجاء بطبق آخر من الفحم. نزع جبّته الصوفية السميكة وعلقها على مسمار بجوار النافذة. ملأ المرجل بالفحم والقش وأشعل النار. انكفأ فوق المرجل ونفخ النار طويلاً قبل أن تنشط الشعلة في القش. عبث موخامّد بحبات التمر وهو ما زال يراقب الطائر الفضي. قال فجأة:

ـ ما يحيرني أنه ولد. طفل. طفل ويكذب. لا استطيع أن أفهم.

رفع بركة رأسه، ومسح دموعاً انبثقت من عينيه. التفت نحو موخامد وهو ما يزال يعاني الدوار الذي نتج عن النفخ الطويل في النار. في النهاية فهم فابتسم. جرّ نحوه عالة الشاي وعلّق:

ـ يبدو أنهم عرفوا فيك قادماً جديداً فقرروا أن يتسلّوا. يروق لهم أن يداعبوا الوافدين الجدد.

ظلّ الضيف يعبث بحبات التمر من دون أن يأكل. لاحظه بركة فشجعه:

ـ يجب أن تأكل. في السجن أخبروني أنك أضربت عن الطعام.

ـ الحمد لله. كنت أشرب الشاي.

ـ وهل يطعم الشاي من جوع؟ الإنسان لا يعيش على الشاي.

ـ في الحبس لا يجب على الإنسان أن يعيش.

في المرجل طقطقت النار في الجمر بدويّ الطلقات النارية. انتفض الطائر الفضي في القفص وفتح عيناً واحدة، عيناً عسلية كسولاً. عاد يهجع في استرخاء ملتمّاً حول نفسه كالقنفذ. توقف موخامّد عن مداعبة التمر. أحس بجمرة تحرق قلبه وتدفعه الى الكلام. قال:

ـ لا أعرف كيف تنامون تحت هذه السقوف. في الصحراء نادراً ما كنت أنام داخل الخيمة. أنت تعرف كم أحس الآن بالندم.

ابتسم الخال. قال وهو يمروح الجمر:

ـ سوف تتعوّد. في الواحة لا بد أن تنام تحت سقف أو وراء جدار. أنا أيضاً جربت ذلك عندما توغلت في الدنيا أول مرة. في البداية خفت أن تنهار الجدران ويسقط على رأسي السقف. ثم خشيت أن..

صمت لحظة ثم أضاف كأنه تذكّر:

ـ .. أموت اختناقاً في الليل. ولكن الجن لم يزرني في الكوابيس أبداً.

ولكن المهاجر عبر الى النجوم:

ـ لم أكن أعرف ان افتقاد السماء والنجوم والفضاء مؤلم الى هذا الحد. لم أستطع أن أنام فكيف تريدني أن آكل العيش؟

ـ اصبر. كيف تطيق الحياة اذا لم تعوّد نفسك على الصبر؟

ـ ندمت على اللحظات القليلة التي غفلت فيها عن ملاحظة السماء، عن ملاحقة الأفق في الصحراء.

ـ . . . .

ـ في الماضي لم أدر أن النجوم جميلة الى هذا الحد. وعندما افتقدتها قاسيت كثيراً كأني فقدت قطعة من قلبي.

سكت فسمع سكون الحمادة، واستلقى امام عينيه الخلاء. . .

خرج بركة. نهر الأطفال فكفوا عن الهرج. عاد يحمل قصعة خشبية كبيرة مغطاة بطبق سعف مضفور بعناية. وضع القصعة على الكليم، واكتشف أن ضيفه قد اختفى. ظن أنه خرج ليصلّي الظهر في الأحراش المجاورة فتربع بجوار المرجل وشرع يصفي الشاي. فجأة انتبه الى القفص الفضي الملقى على الكليم بجوار الجدار. قضبانه الأمامية المجاورة للفتحة المغلقة بالقفل ملوية بخشونة. أحد القضبان انتزع من منبته السفلي فتدلّى منثنياً الى الناحية اليسرى. داخل القفص تناثرت حبيبات طعام وقصب. أما الطائر نفسه. . فقد اختفى

خرج الى الساحة. عبرها الى الخارج ودار حول البيت. وقف لحظات يتلفت ويتفقد باحثاً عن ضيفه، ثم توجه الى الأحراش. فتش الشجيرات القزمية المتشبثة بالأرض. ومشى بين النخلات العالية. نادى «موخامّد. .» مراراً. أنصت، فسمع صياح الجنادب ونداءات الوقواق الغامضة. الأحراش أفضت الى خلاء «زلاف». اشتعلت الرمال باللهب وتزاقص السراب. في الأفق البعيد، لاح شبح كالطّيف سرعان ما ابتلعته تموجات السراب.

نادى الوقواق في رأس النخلة، فوقف وأنصت.

تحت أشعة الشمس، بين قمم النخل، لمع الطائر الفضي.

(١٩٨٩)

المحتويـــات

مولد الترفاس ٥
نذر البتول ١٥
طائر النحس الذهبي ٤٥
السيل ٥٥
النبوءة ٦٧
السلطان ٨٧
القفص ١٣١